

كتاب الصلاة

٢

اصرف ولا ايتا عيب

تأليف

دكتور حسين نصار

المعهد العلمي للشريعة الإسلامية

جامعة القاهرة

مكتبة سور الأزبكية

الناشر

مكتبة مصر

شارع كامل صديقي - الجيزة

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

المبازرة

٣

الصفحة والانباء بالغييب

تأليف
دكتور حسين نصار

العديد السابق لكلية الآداب
جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة مصر

ميدان مولدو السمار و شركة
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت: ٥٩٠٨٩٢٠

الضَّرْفَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

من العسير الكتابة الدقيقة عن الصرفة وجها من وجوه إعجاز القرآن ، يطمئن فيها الكاتب إلى أنه أحاط بكل ملامحها وأبعادها ، وأحسن التعبير عن أفكار أصحابها . وذلك لسببين :

أولهما ضياع الكتب التي أنتجها أنصار الصرفة ، مما يجعل الكاتب يضطر إلى الاعتماد على ما دوّنه خصومها ، أو غير أنصارها : على ما فى ذلك من إمكان الشطط . وثانيها أنها أثارت ما لم يثره غيرها من الوجوه من كره ورفض وجدل وسوء فهم واتهام ، لمن قال بها ومن قبلها ، بين من تعرضوا لها . وأكتفى للبرهنة على ذلك بقول أحد علماء الدين المحدثين ، عندما اضطر إلى الحديث عنها . قال د . على العمارى : «منذ بدأت أقرأ فى كتب الكلام وأنا أحمل البغض والحقد لهذا المذهب والقائلين به . وكنت أعجب أشد العجب أن يقول عالم من علماء المسلمين هذه القالة فى القرآن الكريم^(١) » .

الفصل الأول

القول بالصرفة

الأوائل

أقدم من ذكر العلماء أنه قال بالصرفة : الجعّد بن درّهَم (١) (نحو ١١٨ / ٧٣٦)
وواصل بن عطاء (٢) (٨٠ - ١٣١ / ٧٠٠ - ٧٤٨) وبِشْر بن غِيَاث المَرِيْسِيّ (٣)
(بين ٢١٨ و ٢٢٨ / ٨٣٣ و ٨٤٣) وأبو موسى عيسى بن صبيح المُردار (٤)
(نحو ٢٢٦ / ٨٤١) .

أما الجعّد فقال عنه د . على العمارى : ممن قال بأن الناس قادرون على مثل القرآن
الجعّد بن درهم ، مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، بل قال : إنهم قادرون
على أحسن منه (٥) .

واعتقد أن من نسب القول بالصرفة إلى واصل قد أخطأ ، لأن أحدا آخر لم يتفق معه .
ولعله تأثر بما شاع من نسبة الصرفة إلى المعتزلة ، فنسبها واهما إلى شيخهم الأول .
وأما المريسي فقد ورد اسمه فى قول ياقوت بن عبد الله الرومى (٦٢٢ / ١٢٢٥)
أن الصرفة كانت مذهباً لجماعة من المتكلمين والرافضة ، منهم بشر المريسي والشريف
المرتضى (٦) .

وأما المردار فقد عزا إليه الشهرستاني أنه زعم أن الناس قادرون على مثل القرآن
فصاحة ونظماً وبلاغة ، وأن أصحابه تبعوه على ذلك (٧) . وعقب الرافعى على ذلك
بقوله : وهو جنون بلا ريب ، ليس أقبح منه إلا جنون الحسينية - أصحاب الحسين بن

(١) العمارى ٥٨ . البدرى ١٤٠ . (٢) مقدمة حفنى شرف لبديع ابن أبى الإصبع ٣٥ .

(٣) ياقوت ٣ / ١٤٠ . (٤) الرافعى ١٥١ . العمارى ٥٧ . البدرى ١٤٠ .

(٥) حول ٥٨ . (٦) معجم ٣ / ١٤٠ .

(٧) الملل ٦٧ - ٨ . السمعانى ٥٢١ . الرافعى ١٥١ . أمين ٣ / ١٤٧ . العمارى ٥٧ .

القاسم العياني (٣٨٤ - ٤٠٤ / ٩٩٤ - ١٠١٣) . الذين يزعمون أن كتبهم وكلامهم أبلغ وأهدى وأبين من القرآن . وذلك زعم يكبر أن يكون جهلا وسخفا من قوم شاهدين على أنفسهم بالكفر ، وإنما هو بعض ما يزينه شيطان النفاق^(١) .
ونفى على العمارى عن المردار ما عُزى إليه ، وذهب إلى أنه - يقينا - من تشنيعات خصوم المعتزلة ، وكم لهم من تشنيعات^(٢) .
وأعتقد أن الكتاب المحدثين خلطوا بين القول بخلق القرآن والقول بالصرفة ، فنسبوا الصرفة إلى جماعة من القدماء لم يُنقل عنهم ذلك . أستأنس على ذلك بقول ابن الأثير فى معرض حديثه عن أحمد بن أبى دؤاد فى أحداث سنة ٢٤٠ : « كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة . أخذ ذلك من بشر المريسى ، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان ، وأخذه جهم من الجعد بن درهم ... »^(٣) . وأرى أن القول بالصرفة نشأ أول ما نشأ فى جيل النظام ، عنده وعند بشر المريسى والمردار .

النظام

ويصل بنا السير إلى إبراهيم بن سيار النظام (٢٣١ / ٨٤٥) فعشر على فيض من الأقوال التى تصرح بكنهه رأيه ، وتورد نصوص أقواله .
وأقدم من فعل ذلك فى شىء من التفصيل - إذا تجاهلنا ابن الراوندى الخصم اللدود للمعتزلة شيعة النظام - هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي البلخى (٢٧٣ - ٣١٩ / ٨٨٦ - ٩٣١) الذى أعلن أن الحجة فى القرآن - عند النظام - « ما فيه من الإخبار عن الغيوب لا النظم والتأليف ، لأن النظم - عنده - مقدور عليه ، لولا أن الله منع منه »^(٤) .
وأكد ذلك على بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤ / ٨٧٤ - ٩٣٦) . حين روى أن النظام قال : الآية والأعجوبة فى القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب فأما التأليف

(٢) حول ٥٨ .

(١) إعجاز ١٥١ .

(٣) الكامل ٧ / ٧٥ . وانظر اللباب فى الأنساب ١ / ٣١٧ .

(٤) فضل الاعتزال ٧٠ . وليد ٤٦ .

والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم^(١) .

وزاد على بن أحمد المعروف بابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ / ٩٩٤ - ١٠٦٤) هذا القول وضوحاً بحكايته أن النظام قال في إعجاز القرآن : إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ، ومنع العرب عن الاهتمام به ، جيرا وتعجيزا . ولو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما^(٢) .

واتسع كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزمكاني (٦٥١ / ١٢٥٣) فذكر أن النظام قال : إن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب علومهم . إذ نثرهم ونظمهم لا يخفى ما فيه من الفوائد . ومن ثم قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾^(٣) وهذا على حد ما جعل الله سلب زكريا النطق ثلاثة أيام - من غير علة - آية . أو أنهم لم يحيطوا به علما على ما قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾^(٤) .

وحكى بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥ - ٧٩٤ / ١٣٤٤ - ١٣٩٢) رأى النظام فروى أنه قال : إن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم . وكان مقدورا لهم ، لكن عاقهم أمر خارجي ، فصار كسائر المعجزات^(٥) .

وانفرد د . وليد قصاب بالقول بأن الله صرف أوهم العرب عن معارضة القرآن ، أو القدرة على الإتيان بمثله^(٦) ...

وكان للنظام رأى آخر في القرآن ، على صلة بالرأى السابق ، غير أن خلط بعض الباحثين بين الرأيين أدى إلى شيء من الارتباك والخطأ . وقد صرح تلميذ النظام أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ / ٧٨٠ - ٨٦٩) أن هذا الرأى كان أحد أسباب تأليفه كتاب « نظم القرآن » حين قال في رسالة « حجج النبوة » : « فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسى ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى ، فى الاحتجاج للقرآن ،

(١) مقالات ٢٢٥ . لاشين ٤٢٧ . الصباغ ٦١ السلامى ٥٩ . وليد ٣١٥ . أبو زيد ٧٧ .

(٢) الفصل ١ / ٧٢ . الشهرستاني ١ / ٥٨ . الملا ٢٤٥ .

(٣) سورة الأنفال ٣١ . (٤) سورة يونس ٣٩ . البرهان ٥٣ .

(٥) البرهان ٢ / ٩٣ . الإتيان ٢ / ١٣٦ . الملا ٢٤٥ . (٦) التراث ٣١٥ .

والرد على [كل] طعان . فلم أَدع في مسألة لرافضى ، ولا لحديثى ، ولا لحشوى ، ولا لكافر مُبادٍ ، ولا لمنافق مقموع ، ولا لأصحاب النظام ، ولمن نجمَ بعد النظام ، ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة » .

ووضح فخر الدين محمد بن عمر الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦ / ١١٥٠ - ١٢١٠) هذا الرأى حين نسب إلى النظام أنه قال : ما أنزل الله القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة ، لبيان الأحكام من الحلال والحرام . إنما لم يعارضه العرب لأن الله سلب علومهم به ، وصرفهم عن ذلك^(١) .

وقد نقل عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن الخياط (نحو ٣٠٠ / ٩١٢) هذا الرأى عن أحمد بن يحيى الراوندى (٢٩٨ / ٩١٠) الذى كان خصما للمعتزلة ، وشنع عليهم فى كتاب سماه « فضائح المعتزلة » نقله عنه منسوبا للنظام ، من أجل التشنيع وتضخيم الأمر . ثم رد ابن الخياط عليه بتوضيح موقف النظام . وأعلن أن القرآن - عنده - حجة للنبي على نبوته من عدة وجوه ، مثل ما فيه من الإخبار عن الغيوب^(٢) .

وتنبه د . منير سلطان - بحق - إلى أن دفاع ابن الخياط لم يتعرض إلا لرأى النظام فى الإعجاز بالإخبار بالغيب ، وأغفل الصرفة^(٣) .

وأعلن د . محمد عبد الهادى أبو ريذة أن ما أورده الكتاب للنظام رأيان لا رأى واحد^(٤) ، وإن كانا وثيقى الصلة .

ونخلص إلى تعريف الصرفة عنده بأن الله أذهل العرب ، وصرف عنهم الدواعى التى تدفعهم إلى الاهتمام بمعارضته ، فلم يفعلوا .

أما قول الرازى والزمكائى ومن اتبعهما : إن الصرفة عند النظام تستند فيما تستند إلى سلب العرب علومهم ، فأخشى أن يكون خطأ ، جاء من المزج بين مفهوم الصرفة عند النظام ومفهومها عند الشريف المرتضى ، وما أتى به د . وليد قصاب خلط فيه أقوال النظام وأقوال الجاحظ .

والنفت المحدثون إلى موقع النظام بين المؤمنين بالصرفة :

(١) رسائل الجاحظ للسندوبى ١٤٨ . سلام ٧٠ . فقيهى ١٤١ . لاشين ٤٢٧ . أبو زهرة ٧٨ .

وليد ٤٦ - ٧ . (٢) نهاية الإيجاز ٥ . الحمصى ٥٤ . البدرى ١٥٠ .

(٣) الانتصار ٢٨ . الملا ٢٤٢ . منير ٥١ . (٤) إعجاز ٥١ .

فجواهر الرافعى بأنه هو الذى بالغ فى القول بها حتى عُرفت به^(١) .
وذكر على العمارى أن هذا المذهب ينسب إلى هذا العالم المعتزلى الكبير فلا نجد كتابا
ينسبه إلا نسبه للنظام ، على أنه أول من قال به ، وناضل دونه ، حتى إن الخاطر لينصرف
عند ذكره إلى النظام . ثم تساءل : ولكن هل كان أول من قال به حقا ؟ ثم أجاب : إنه
- على ما فهمه العلماء - ليس من ابتداعه ، وإنما جرى الكلام به على ألسنة قوم من قبله ،
من أشهرهم عيسى بن صبيح المرदार^(٢) .

وصرح محمد أبو زهرة بأنه أول من جاهر به ، ودعا إليه ، ولا حتى عنه ، كأنه مسألة
من مسائل علم الكلام . واستطرد : نقول : إنه أول من جهر به ، ولا نقول : أول من
فكر فيه ، أو أول من ابتدأ القول به ، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهى تتكون فى
خلاياها ، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر ويجاهر بها^(٣) .

ووصفه عبد الكريم الخطيب بأنه أول من فتح الطريق إلى هذا القول^(٤) .
وقال محمد بن سعد الدبيل : إنه أول من قال بالصرفه^(٥) .

أتباع النظام

اكتفى الأشعري بالقول بأن هشام بن عمرو الفوطى (٢٢٦ / ٨٤١) وعباد بن
سليمان الضمرى (حدود ٢٥٠ / ٨٦٤) اتفقا مع النظام فى القول بأن القرآن ليس
حجة للنبي ، لأنه عَرَضَ ، والعرض لا يدل على النبوة^(٦) .
ووضع أبو الحسين محمد بن أحمد الملطى الشافعى (٣٧٧ / ٩٨٧) هشاما فى تلاميذ
النظام ، وعبادا فى تلاميذ هشام^(٧) .

(١) إعجاز ١٦٢ . البدرى ١٤٥ . العمارى ٥٨ .

(٢) حول ٥٧ . البدرى ١٤٠ .

(٣) المعجزة ٧٨ . خلف الله ٢٣٨ . (٤) إعجاز ٣٦٤ .

(٥) النظم ٣٠ عطا ٢٣٨ . وليد ٣١٥ . أبو زيد ٧٧ ، ٢٦٣ .

(٦) مقالات ٢٢٥ - ٦ . الباقلانى ٦٥ . أبو زيد ٢٦٣ - ٤ . (٧) التنبيه ٣٩ .

وكان الباقلاني هو الذى صرح بأن النظام وعبادا وهشاما اتفقوا فى القول بأن نظم القرآن ليس معجزا ، وأنه تمكن معارضته ، وإنما صُرف العرب عنه ضربا من الصرف^(١) . وذكر البغدادي عدة آراء للنظام ثم قال : وإنما تبعه فى ضلالته شرذمة من القدرية ، كالأسوارى وابن خابط وفضل الحدثنى والجاحظ ، مع مخالفة كل واحد منهم له فى بعض ضلالاته ، وزيادة بعضهم عليه فيها . وإعجاب هؤلاء النفر اليسير (القليل) به كإعجاب الجعل بدُخْرُوجته^(٢) .

ونسب يحيى بن حمزة العلوى اليمنى (٦٦٩ - ٧٤٥ / ١٢٧٠ - ١٣٤٤) مذهب الصرفة إلى النظام وأبى إسحاق النصيبى أستاذ الشريف المرتضى كليهما^(٣) . وعدت د. عائشة عبد الرحمن النظام وهشاما وعبادا من متقدمى شيوخ المعتزلة القائلين بالصرفة^(٤) .

وذكر د. عمر الملاحويش أن رأى النظام أحدث صدق عند المسلمين ، حيث كان موضع نقاش بينهم . فمنهم من رفضه ، وهم أغلب جماعة المسلمين . ومنهم من أيده وهم المردارية . ومنهم من قبله بتحفظ كالأسوارى وابن خابط وفضل الحدثنى والجاحظ^(٥) .

وذكر د. وليد قصاب أنه لم يشايح النظام على رأيه إلا عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى المرदार وعباد وهشام ومن ذكرهم البغدادي^(٦) .

(١) إعجاز ٦٥ .

(٢) الفرق ١٣٢ . الجعل : نوع من الخنافس . ودخروجته : فضلاته التى يكورها ويدحرجها .

(٣) الطراز ٣ / ٣٩١ . (٤) الإعجاز ٧٢ .

(٥) تطور ٢٤٦ . (٦) التراث ٤٧ ، ٣١٥ .

الجاحظ

رأينا البغدادي يضع أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فيمن اتبع النظام في القول بالصرفة من تلاميذه . وهو قول لم يتيسر لأحد من المعجبين بالأديب الكبير والمدافعين عنه أن ينكره ، لأنه هو نفسه أقرّ به حين قال : « ومثل ذلك ما رفع [الله] من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن ، بعد أن تحداهم الرسول بنظمه . ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه . ولو طمع لتكلفه . ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ؛ ولألقى ذلك للمسلمين عملا ؛ ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ؛ ولكثر القيل والقال : فقد رأيت أصحاب مسيلمة ... إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام ، الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه ، وأخذ بعضه وتعاطى أن يقاربه . فكان لله ذلك التدبير ، الذي لا يبلغه العباد ، ولو اجتمعوا له»^(١) .

ولكن هذا القول الصريح اصطدم مع أقوال صريحة أخرى ، تختلف معه في الدلالة ، وتتفق في الصدور عن الجاحظ : فدفع هذا الكتاب إلى أن يسلكوا سبلا شتى في محاولة معرفة الموقف الحق للرجل ، وتبرير الأقوال المتعارضة .

فأورد أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (٤٧١ / ١٠٧٨) خبرا يدل على أنه كان يرى الإعجاز في ألفاظ القرآن وصياغتها . فقد ذكر أنه قال في كتاب «النبوة» في أثناء حديثه عن إعجاز القرآن : ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ، قصيرة أو طويلة ، لتبين له في نظامها ومخرجها ، من لفظها وطابعها ، أنه عاجز عن مثلها . ولو تُحدّث بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها^(٢) .

(١) الحيوان ٤ / ٨٩ . الرافعي ١٦٥ . الحمصي ٥٦ . الخطيب ٣٦٨ . الملا ١٦٢ لاشين ٤٣٦ .
العماري ٦٦ ، ٦٨ . عز ٢١٧ . منير ٥٨ . البدري ١٤٧ . أبو موسى ٣٦٢ . وليد ٧٠ . أبو زيد
٢٦٧ .

(٢) دلائل ٢٥١ ، ٣٨٩ . وانظر « حجج النبوة » على هامش « الكامل » للمبرد ١ / ٢٩١ .

واتهم الرافعى الجاحظ بكثرة الاضطراب . وأعلن أنه لم يسلم من القول بالصرفة ، غير أنه أخفاها وأوماً إليها عن عُرض ، على الرغم أن رأيه فى الإعجاز - عند الرافعى - كراى أهل العربية ، وهو أن القرآن فى الدرجة العليا من البلاغة التى لم يُعهد مثلها .

ثم وقف حائراً فى تعليل موقفه بين أحد الرأيين التاليين :

- قد يكون استرسل بما قال عن الصرفة لما فى نفسه من أثر أستاذه ، وهو شىء ينزل على حكم الملابس ، ويعترى أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه .
- أو يكون ناقلاً^(١) .

وأورد نعيم الحمصى رأى الجاحظ . واستدل على القول بالصرفة بالنص الذى أوردته آنفاً ، وعلى القول بالنظم بقوله فى معرض رده على الدهرين الذين لا يؤمنون بالتوحيد : « فلم يبق له [أى للدهرى] إلا أن يسألنا عن الأصل الذى دعا إلى التوحيد وإلى تثبيت الرسل . وفى كتابنا المنزل ، الذى يدلنا على أنه صِدْقٌ : نظمُه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد - مع ما سوى ذلك .. »^(٢) . كما استدل عليه بقول آخر للجاحظ ، ذكر فيه أنه ألف كتاباً فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وكتاباً آخر سماه « الحجة فى تثبيت النبوة » مما يدل على رده على بعض المعتزلة الذين ادعوا أن فصاحة القرآن غير معجزة ، وعلى تعرضه لعدة مسائل كلامية كان المعتزلة يعالجونها^(٣) .

ثم تساءل الحمصى : هل قال الجاحظ بالصرفة حين كان لا يزال متأثراً بأراء أستاذه النظام ، وبالنظم حين استقل بنفسه ، أو أنه جمع بين الرأيين معا ؟ ثم استبعد أن يكون قد قال بالرأيين معا ، فى وقت واحد ، لما نعرفه عنه من قوة التفكير ووضوح الحجة ، لأن الرأيين متناقضان^(٤) .

وفرق د. مصطفى الصاوى الجوينى بين مفهوم النظام والجاحظ للصرفة . فذكر أن النظام كان يرى قدرة المنشئين على أن يصوغوا مثل القرآن ، وأن الإعجاز فى صرف الله لهم عن هذا الصنيع . أما الجاحظ فرأى أن القرآن يصرف أطماع البلغاء عن الإتيان بمثله ،

(١) إعجاز ١٦٤ - ٥ . عتر ٢١٧ - ٨ . البدرى ١٤٨ . أبو موسى ٣٦٠ .

(٢) الحيوان ٤ / ٩ . فكرة ٥٦ .

(٣) الحيوان ١ / ٩ . فكرة ٥٦ .

(٤) فكرة ٥٦ - ٧ .

ليأسهم من استواء كلامهم على مرتبة عالية لا تتخلف من الجودة ، كما هو شأن الأسلوب القرآنى القاطع للأطماع^(١) .

ورأى محمد أبو زهرة أن الجاحظ لم يسلك مسلك المجادل المحاور فى الرد على شيخه، وإنما رد عليه بالعمل . فكان أول من كتب فى إعجاز القرآن من الناحية البيانية ، ليكون الرد على الصرفة ببيان الإعجاز الذاتى للقرآن^(٢) .

واستغرب عبد الكريم الخطيب عدم احتفاظ التاريخ للجاحظ برسالة أو كتاب فى إعجاز القرآن ، مع أنه عرض لكثير من الموضوعات التى لا يلتفت إليها أكثر الكتاب . فعالجها هو وبسط القول فيها . واستبعد ألا يكون له رسالة فى ذلك ذهب فيها ذهب بيد الضياع من كتبه .

وجهر بأن له فى بعض كتبه ورسائله كلمات منشورة فى الإعجاز ، لا تصرح فى جلاء بوجهه ، ولكن يمكن الاستدلال على رأيه منها . ثم أتى بنصوص مطولة له ، استقفاها من رسالة « حجج النبوة » و « إتقان السيوطى » . وخلص منها إلى إيمان الجاحظ بإعجاز القرآن ، وبأن النظم هو وجه الإعجاز^(٣) .

وعلى الرغم من ذلك اعترف الخطيب بأن الجاحظ قال بالصرفة .

وفسر هذا الموقف من الجاحظ بأنه أتى بهذا رأى فى معرض الاحتجاج على الذين يشككون أن يكون سليمان - عليه السلام - قد وهب الله له ملكا لم يكن لأحد من بعده ، وأن الجن كانت من بعض ما يملك ، ثم يجهل ملكة سبأ أو ملكها ، حتى دله عليهما الهدهد . فكيف يصح هذا ؟ وكان رد الجاحظ عليهم بإيراد أمثلة عدها من الصرفة ، جعل منها الصرفة القرآنية^(٤) .

ونفى الخطيب أن يكون الجاحظ قال بالصرفة ، عن تقليد ومتابعة لشيخه ، وأعلن أنه قال بها عن نظر وموازنة ومراجعة ثم اقتناع ، بعد أن أعياه الوقوع على الضوابط الدقيقة التى يضبط بها وجه الإعجاز ، ويكشف عن أسرارها^(٥) .

(١) منهج ٢٠٧ . طه الحاجرى : الجاحظ ٣٢٣ .

(٢) المعجزة ٧٨ . (٣) إعجاز ١٥٧ - ٦٥ . الإتقان ٢ / ١٣٦ .

(٤) إعجاز ٣٦٧ - ٨ . لاشين ٤٣٥ - ٦ . الحيوان ٤ / ٨٥ - ٩ .

(٥) إعجاز ١٧٦ - ٨ . لاشين ٤٣٦ . منير ٢٠٣ . وليد ٣٢٠ .

وذكر أن الصرفة التي أعلنها الجاحظ ليست مطلقة ، وإنما هي صرفة أعلن الجاحظ أنها حمت القرآن من أن يتكلف لمعارضته بعض المتكلمين ، فيوقع في نفوس الأغرار والجهلة الاضطراب ، ويشوش على القرآن .

وعلى الرغم من ذلك ، لم يقبل الخطيب هذا القول على علاته من الجاحظ ، وعده إحدى مغالطاته . ولو أراد الجاحظ أن ينقضه لنقضه بغمزة من قلمه ، دون أن يكذ ذهنه أو يطلق العنان لقلمه^(١) .

وأخيرا صرح الخطيب أن رأى الجاحظ في الصرفة هو الذى جعل لرأى النظام مكانا بين الآراء ، ولولاه لما التفت الناس إلى رأى النظام هذا الالتفات ، ولما عاش فى الناس : ينقضونه حيناً ، ويقبلونه آخر^(٢) .

وانفرد د. عمر الملاحويش عن بقية الدارسين بالإصرار على أن الجاحظ من معتقى الصرفة وحدها . فصرح أنه - بعد استقصاء ما عند الجاحظ مما يتعلق بالإعجاز من قريب أو بعيد - ظهر له أن الجاحظ تأثر بأستاذه ، فراح يمهّد للقارئ - كعادته - ليستدرجه إلى الصرفة . وأرجع هذا التحفظ إلى رد الفعل الذى أحدثه رأى النظام فى المجتمع الإسلامى . فلم يشأ الجاحظ أن يكون هدفاً للتيار الذى تعرض له أستاذه . ولذلك أخذ يدور حوله فى أول الأمر ، وعندما أعيته الحيلة أن يجد وجهاً يرتضيه للإعجاز ، جهر برأى النظام فقال بالصرفة^(٣) .

ورد على أقوال عبد الكريم الخطيب بأنه حمل الجاحظ ما ليس له ، لأنه لم يره يوماً قال بالإعجاز البيانى ، وإنما كان يشيد ببيان القرآن وبلاغته وجمال نظمه . ولا يعنى هذا أن الجاحظ كان يرى أن وجه الإعجاز من هذه الناحية ؛ هذا من جهه . ومن جهة أخرى : إذا سلمنا أن الجاحظ قد نوه بذلك ثم عاد فقال بالصرفة صراحة ، يكون قد نفى عنه كل احتمال عن اعتقاده بأن القرآن معجز بنظمه ، لأن هذا الرأى لا يتفق والقول بالصرفة ، وبخاصة أنه قال بها مطلقة ولم يقيدتها بشيء .

(٣) تطور ٢٥٦

(٢) إعجاز ١٧٧ .

(١) إعجاز ٣٦٩ .

ولو أن الجاحظ كان قد قبل رأى النظام بتصرف ، لتعرض هو الآخر لنقد العلماء الذين تناولوا رأى النظام . ولكن تبعيته لمبدأ الاعتزال أبت عليه إلا أن يسير وراء أستاذه ، ولذلك لم يتعرض أحد له بالنقد اكتفاء بنقد الشيخ^(١) .

وخلاصة القول عند عمر الملاحويش : إنه لا يرى الجاحظ من القول بالصرفة فى إعجاز القرآن ، غير أنه - من ناحية أخرى - لا ينكر على الجاحظ إعجابه بنظم القرآن ، وإشادته بذلك فى مواضع كثيرة من مؤلفاته ، فأفاد منه من جاء بعده فى هذه الناحية ، وبخاصة عبد القاهر الجرجانى الذى تأثر بأراء الجاحظ ، وبنى عليها نظرياته فى البلاغة وإعجاز القرآن^(٢) .

ولاحظ على العمارى أن الجاحظ لم يورد فى نصه الذى بدأنا به الحديث عنه شيئا عن الإعجاز ، ولا ذكر لفظه . فمن أين جاء للعلماء أن المراد بالصرف الصرف عن الإتيان بمثل القرآن ، فيكون هو وجه الإعجاز .

ومهما يكن من شىء ، فهو يرى المسألة - عند الجاحظ - صريحة واضحة : فما كان العرب ليستطيعوا أن يقولوا شيئا فى مرتبة القرآن . وإنما كان فى مقدورهم أن يقولوا كلاما يشته به الأمر على الأعراب وأشباههم . لقد عجزوا عن الأول - القرآن - لأنه فوق طاقتهم . ومحال أن يرى الجاحظ أن بلاغة النبى ﷺ فوق مستواهم ، ثم لا يرى بلاغة القرآن كذلك . وصرخوا عن الثانى - المشتبه - لكلا يكون القرآن موضع جدل ومحكمة^(٣) .

واعلن د. حسن ضياء الدين عتر أنه يبدو له واضحا أن الجاحظ لم يصل به الشذوذ إلى أن ينكر إعجاز القرآن . واستشهد على ذلك بأقواله البليغة التى لم تنزل موطن إكبار علمائنا وكتابتنا واستشهادهم ، وبما اقتبس الجرجانى من « حجج النبوة » وبتأليفه « نظم القرآن » . ووصف هذين الكتابين بأنهما علميان مختصان من أجل مؤلفات الجاحظ ، وأنهما أفادا - بصراحة لا تحتمل التأويل - أن الإعجاز وصف ذاتى منبعث من خصائص القرآن ومزاياه . ويدل هذا على أن الجاحظ كان يعتقد مذهب الإعجاز الذاتى للقرآن .

(١) تطور ٢٦٣ - ٤ . (٢) إعجاز ١٧٧ . (٣) حول ٦٧ - ٩ .

أما ما نسب إليه من القول بالصرفة ، فلا يعدو أن يكون قولاً آخر جمع فيه بين القول بالإعجاز الذاتى والإعجاز بالصرفة فى آن واحد^(١) .

وذهب د. منير سلطان إلى أن الصرفة - عند الجاحظ - وجه من وجوه الإعجاز ، قال بها الجاحظ بعد أن جرت تجربة المعارضة وفشلت ، واعترف العرب بالعجز ، وشهدوا أن القرآن معجز بنظمه . وهنا يأتى لطف الله بالناس ، من أن يطمع فى القرآن طامع فيتكلفه ويشغب بما أتى به . فيتعلق به البسطاء ، وتكثر المحاكمة ، وتنتشر البلبلة بين الناس . فصرف أوهام المشاغبين عن العبث^(٢) .

ومال عمر السلامى إلى أن قول الجاحظ بالصرفة قد يكون من باب الاستسلام لسحر القرآن ، وقوة بيانه ، وعجز الجاحظ عن الإفصاح بذلك ، وهى حال يصل إليها كثير من كبار العلماء عند إدراك حلاوة القرآن وإعجازه عن طريق الذوق الشخصى أمثال الرمانى والخفاجى والأصبهاني^(٣) .

وتقدم د. وليد قصاب بالسؤال : لماذا لجأ العرب إلى القتال ، ولم يلجؤوا إلى معارضة القرآن ؟

ثم ذكر أن الجاحظ قدم افتراضين للإجابة :

أحدهما : أن يكونوا سكتوا عن المعارضة وهم قادرون عليها . وهو احتمال لا مسوغ له عقلاً .

والثانى : أن يكونوا قد أحسوا بتفوق القرآن فسكتوا حتى لا ينكشف أمرهم . ورأى أنه الاحتمال المقبول أكثر من غيره . ومع ذلك ، فكأنما أحس الجاحظ أنه غير كاف إلى درجة اليقين ، فدفعه ذلك إلى أن يلتمس تعليلاً آخر ، وقد وجدته فى الصرفة .

وظن أن هذا سبب ذبوع الحديث عن الصرفة فى البيئة الاعتزالية^(٤) .

ووافق أحمد أبو زيد على التفرقة بين تصور النظام وتصور الجاحظ للصرفة . ثم أعلن أن هذه التفرقة فاتت مصطفى صادق الرافعى ود . نعيم الحمصى ، فاتهما الجاحظ بالتناقض والاضطراب ، مع أن من القدماء من نبه على الفرق مثل القاضى عبد الجبار ، ومن المحدثين من فعل ذلك مثل د. طه الحاجرى ود. مصطفى الصاوى الجوينى^(٥) .

(٢) إعجاز ٥٩ ، ٢٠٢ . قماوى ٩٨ . وليد ٧٠ ، ٣٢٠ .

(١) بينات ٢١٨ - ٩ .

(٤) التراث ٣١٦ . (٥) المنحى ٢٦٨ - ٩ .

(٣) الإعجاز ٥٨ - ٩ .

الأصبهاني

وروا أن أبا مسلم محمد بن بحر الأصبهاني (٢٥٤ - ٣٢٢ / ٨٦٨ - ٩٣٤) قال في تفسيره : « اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين :

أحدهما إعجاز يتعلق بنفسه

والثاني بصرف الناس عن معارضته ...

وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضا إذا اعتُبر . وذلك أنه مامن صناعة كانت محمودة أو مذمومة إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات فعلية بدليل أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف ، فيشرح صدره بملاستها وتطيعه قواه في مباشرتها ، فيقبلها بانسراح صدر ، ويزاؤها بقلبه .

فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة - الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة لسانهم - إلى معارضة القرآن ، وعجزوا عن الإتيان بمثله ، ولم يقصدوا لمعارضته ؛ لم يخفَ على ذوى البلاغة أن صارفا إلهيا صرفهم عن ذلك .

وأى إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزوا - في الظاهر - عن معارضة مصروفة - في الباطن - عنها^(١) .

فارتضى القول بالصرفة وجهها ، كما ارتضى القول بالفصاحة ، ورأهما صالحين معا . وسيسير كثيرون على هذا الدرب .

(١) معترك السيوطي ١ / ٤ ، ٦ ، ٢٨ . وانظر ابن حزم ١ / ٧٢ .

الأشعري

نسب ابن حزم إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤ / ٨٧٤ - ٩٣٦) قولين متعارضين في الإعجاز . فقد ذكر أن أهل الكلام فيه على خمسة أنحاء ، ثم قال عن النحو الأول : قول روى عن الأشعري ، وهو أن المعجز الذي يتحدى الناس بالمجىء . بمثله هو الأول ، الذي لم يزل مع الله ، ولم يفارقه قط ، ولا أنزل إلينا ، ولا سمعناه . ثم عقب على هذا القول بأنه كلام في غاية النقصان والبطلان ، إذ من المحال أن يكلف أحد أن يجيء . بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه . ويلزمه هذا بأن المسموع المتلو عندنا ليس معجزا بل مقدورا عليه ، أو على مثله . وعقب ابن حزم قائلا : وهذا كفر مجرد ، ولاخلاف فيه ، وأيضا هو خلاف القرآن لأن الله ألزمهم بسورة أو عشر منه . وقال عن الرأي الثاني للأشعري : وله قول آخر كقول المسلمين : إن المتلو هو المعجز^(١) .

ويبدو أن القاضي عياض فهم من الرأي الأول أن الأشعري من القائلين بالصرفة ، قال : وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه - أي القرآن - مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويُقدرهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، إذ منعهم الله وعجزهم عنه . وقال بذلك جماعة من أصحابه أيضا^(٢) .

وأحسب أن تصريح ابن حزم (قول روى عن الأشعري) يدل على شيء من الشك يخامر في صحة النسبة .

(١) الفصل - طبع شركة مكتبات عكاظ - ٣ / ٢٥ .

(٢) الشفا ١ / ٥١٥ - ٧ .

الرماني

افتتح على بن عيسى الرماني (٢٩٦ - ٣٨٤ / ٩٠٨ - ٩٩٤) كتابه بأن وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات ، جعل الثالثة منها الصرفة . ثم حاول أن يبينها في ختامه فقال : « وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة . وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة . وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول^(١) » .

وعقب د . عمر الملاحويش على كلام الرماني ، فأعلن أنه يرى أن الصرفة لا تنسجم مع ما قرره الرماني من وجوه الإعجاز ، لأنها تنقض كل ما بناه من الوجوه الأخرى للإعجاز . ورجا ألا يكون مبالغا إذا قال : إن الرماني لم يقلل بالصرفة إلا لأن رؤوس المعتزلة قالوا بها . فلم يرد أن يخرج عليهم ، وهو واحد منهم . ولذلك نراه بعد أن فصل الكلام عن بلاغة القرآن وقرر أنها خرقت العادة ، ذكر الصرفة دون تعليق ، ونسبها إلى بعض أهل العلم كأنما يريد أن يتبرأ هو منها^(٢) .

واتفق د . حسن ضياء الدين عتر معه ، ثم قال : يبدو لنا أن الرماني والجاحظ وغيرهما ، أوردتهم هذا المورد أنهم لاحظوا أن بلغاء العرب لم يتمحلوا معارضة القرآن ، ولو على سبيل الممارسة بالباطل^(٣) .

وذهب د . منير سلطان إلى أننا إذا تدبرنا رأى الرماني ، وجدناه يدور في الدائرة التي دار فيها رأى الجاحظ .

واتفق معه د . وليد قصاب ، وأعلن أن مفهوم الجاحظ والرماني لا يقدر في بلاغة القرآن ، بل يقر بتفوقه وإعجازه ، ويحس أن ما جاء به خارج عن طوق البشر^(٤) .

(١) النكت ٦٩ ، ١٠١ . الإتقان ٢ / ١٤١ . الحمصي ٦٣ . فقيهي ١٨١ . عائشة ٧٦ . الملا ٢٧٠ . لاشين ٤٣٨ ، ٤٤٠ . عتر ٢١٩ . منير ٧٠ ، ٢٠٣ . خلف الله ٢٣٩ . قمحاوي ٩٨ . السلامي ٦١ . أبو موسى ٣٦٧ . أبو على ٩١ . صالحه ٧٣ .
(٢) تطور ٢٧٢ - ٣ . (٣) بينات ٢٢٠ - ١ . (٤) التراث ٣١٩ .

الخطابي

نقل حمد بن محمد الخطابي (٣١٩ - ٣٨٨ / ٩٣١ - ٩٩٨) عن قوم أن العلة في إعجاز القرآن الصرفة . وعرفها بصرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورا عليها ، إلا أن العائق - من حيث كان أمرا خارجا عن مجارى العادات - صار كسائر المعجزات . وذكر أنهم استدلوا بأنه لو كان الله قد بعث نبيا في زمان النبوات . ففيل له : ما آيتك؟ فقال : آيتي أن أخرج يدي أو أمد رجلي ، ولا يمكن أحدا منكم أن يفعل مثل فعلى . فحرك يده أو مد رجله كما قال . ورام القوم أن يفعلوا فعله ، فلم يقدرُوا ، وهم أصحاب الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم ؛ كان ذلك آية دالة على صدقه . وليس يُنظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره . وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرا خارجا عن مجارى العادات ، ناقضا لها .

وعقب الخطابي على هذه الأقوال بقوله : وهذا أيضا وجه قريب إلا أن قوله سبحانه: ﴿ قُلْ : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾^(١) تشهد بخلاف ذلك ، لأنها أشارت إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، مما لا يلائم الصرفة . فدل ذلك على أن المراد غيرها^(٢) .

وذهب عبد الكريم الخطيب إلى أن مدلول قول الخطابي : « هذا وجه قريب » أن التصوير للمعجزة ووقوعها على نحو هذا ممكن . ثم استطرد : ولكن ذلك في المعجزة المادية التي تظهر في واقع الحس ، متحدية القدرة الإنسانية . أما في القرآن فقد جاءت المعجزة فيه على غير هذا^(٣) .

أما د . عمر الملاحويش فقد أعلن أنه لم يجد تعليلا لقول الخطابي : « هذا وجه قريب » إلا أن قال : ربما لم يكن الخطابي قد وقف على وجه لإعجاز القرآن ، بدليل قوله في

(١) سورة الإسراء ٨٨ .

(٢) بيان ٢٠ - ١ . فقيهي ١٨١ ، ١٨٣ . عائشة ٧٧ . الخطيب ١٨٥ - ٦ . الملا ٢٤٤ - ٦ . لاشين ٤٤٤ - ٥ . عبد القادر ٦٦ . خلف الله ٢٣٨ ، ٢٤٠ . البدرى ١٥٣ . أبو موسى ٣٥٥ ،

٣٦٦ . أبو علي ١٠١ . (٣) إعجاز ١٨٦ .

مقدمة رسالته : « قد أكثر الناس الكلام فى هذا الباب ، قديما وحديثا ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول . وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رى . وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز فى القرآن ، ومعرفة الأمر فى الوقوف على كلفيته » .
وتردد الملا فى الحكم على الخطابى . فذكر مرة أنه رفض الصرفة ، غير أنه وصف حجته فى هذا الرفض بعدم القطع . وذكر فى مرة أخرى : ربما كان الخطابى يميل إلى الصرفة ، ولكنه لما وجدها مرفوضة من قبل جماعة المسلمين ، استدرك لينفى عن نفسه قبولها^(١) .

الشريف الرضى

انفرد أحمد عز الدين عبد الله خلف الله بعد محمد بن الحسين المعروف بالشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ / ٩٧٠ - ١٠١٥) ممن قال بالصرفة^(٢) . وأعتقد أن خلطا بينه وبين الشريف المرتضى وقع من المطبعة أو من المؤلف .

الإسفرائينى

قال الشهرستانى ، وهو يتحدث عن الأشعرى : القرآن عنده معجزة من حيث البلاغة والنظم والفصاحة ، إذ خُير العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة . ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى ، وهو المنع من المعارضة^(٣) .
وأغفل الشهرستانى التصريح باسم القائل بالصرفة من أتباع الأشعرى وبقي العلماء يبحثون عنه إلى أن وجدوا عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى (٧٥٦ / ١٣٥٥) يعدد فى كتاب « المواقف » الأقوال فى إعجاز القرآن ، فيقول : وقيل بالصرفة ، فقال الأستاذ والنظام : صرفهم الله مع قدرتهم^(٤) .

(٢) القرآن ٢٣٩ .

(٤) المواقف ٣٥٠ .

(١) تطور ٢٤٦ - ٨ .

(٣) الملل ١ / ١٠٣ . العمارى ٥٤ - ٥٠ . البدرى ١٣٩ .

ثم كشف على بن محمد المعروف بالشريف الجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦ / ١٣٤٠ - ١٤١٣) عن هذا الاستاذ الذى وافق النظام ، فأبان أنه إبراهيم بن محمد الإسفرائينى^(١) . (١٠٢٧ / ٤١٨) .

الشريف المرتضى

لا تقل شهرة على بن الحسين المعروف بالشريف المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ / ٩٦٦ - ١٠٤٤) فى القول بالصرفة عن شهرة النظام . وبلغ به جده فى ذلك إلى أن ألف فيها كتابا سماه « الموضح عن وجه إعجاز القرآن » ، وصفه الفضل بن الحسن الطبرسى (١١٥٣ / ٥٤٨) بأنه فرّع الكلام فيه إلى غاية ما يتفرع ، ونهاه إلى نهاية ما ينتهى ، فلا يشق غباره غاية الأبد ، إذ استولى فيه على الأمد^(٢) .

ولم يصل إلينا من أقوال المرتضى فى الصرفة إلا عبارتان . دارت الأولى فى جميع الكتب التى ذكرت مذهبه ، وتصرح أنه قال : إن الله سلب العرب العلوم التى لا بد منها فى المعارضة^(٣) .

وعثر عبد العليم الهندى على الثانية ، فى رسالة للمرتضى ، لا تزال مخطوطة محفوظة فى مكتبة برلين . واحتج فيها المرتضى على الصرفة بأن الفرق بين السور الصغيرة وأحسن كتابات العرب ليس واضحا لكل أحد ، بالرغم من أن الفرق بين الجيد من كلام العرب والردىء واضح . وإذن فقد صرف الله العرب عن الإتيان بمثل القرآن^(٤) .

وعلق الرافعى على الأول من قولى المرتضى فقال : كأن المرتضى يقول : إن العرب فصحاء يقدرّون على مثل النظم والأسلوب ، ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعانى ، إذ لم يكونوا أهل علم ، ولا كان العلم فى زمنهم . وهذا رأى يبيّن الخلط^(٥) .

(١) شرح المواقف ٨ / ٢٤٦ . الألوسى ١ / ٢٨ . الزرقانى ٢ / ٣١٠ . العمارى ٥٥ . البدرى ١٣٩ .
(٢) مجمع البيان ١ / ٣٠ . ياقوت ٣ / ١٣٩ . ابن أبى الإصيح ١٠ . مقدمة أمالى المرتضى ١٧ .
(٣) الألوسى ١ / ٢٨ . الرافعى ١٦٢ . الزرقانى ٢ / ٣١٠ . الحمصى ٧٠ ، ٩٦ . مناع ٢٦١ .
العمارى ٥٤ - ٥ . الصابونى ٩٩ . الخطيب ٣٦٥ . أبو زهرة ٧٨ - ٩ . عثر ٢٠٦ . البدرى ١٤٠ .
(٤) الحمصى ٦٩ - ٧٠ . (٥) إعجاز ١٦٢ . الصابونى ٩٩ .

ولاحظ نعيم الحمصى فرقا بين رأى النظام فى الصرفة ورأى المرتضى . فالصرفة عند النظام عدم معارضة العرب للقرآن مع قدرتهم عليها ، وعند المرتضى مع عدم قدرتهم عليها ، لأنهم سلبهم الله مقوماتها وما يساعدهم عليها من المعارف ، بعد أن كانت متأصلة فيهم^(١) .

وخطأ الحمصى تفسير الرافعى لرأى المرتضى ، وقوله : إن العرب لم يكونوا أهل علم ، ولا كان العلم فى زمنهم . وأعلن : إذا كانوا كذلك فيأذن لم يسلبهم الله شيئا ؟ وإذن فأين الصرفة ؟ ورجح أن سبب هذا الخطأ أن الرافعى فهم من معنى (العلوم) غير ما قصده المرتضى منها ، وهى العلوم المساعدة على نظم الكلام^(٢) .

ونقل الحمصى أن عبد العليم الهندى قال : إن الشريف المرتضى ربما كان آخر من قال فى الإعجاز بالصرفة وحدها . ثم خطأه ، وقال : حقا إن أكثر من قال بها بعده جمعها مع النظم كالأصفهاني ، ولكن الخفاجى مثلا قال بها وحدها^(٣) .

ومع ذلك يحسن التنبيه إلى أن الشريف المرتضى - فيما يبدو - لم يلتزم بالقول بالصرفة وحدها . فقد علق فى كتابه « طيف الخيال » على أبيات أعجب بها لعمر بن قميئة ، فقال : « فانظر إلى هذا الطبع المتفق ، والنسج المتسق ، من أعرابى قُح ، قال فى هذا المعنى الكثير ، ونظم منه الغزير ، وقلب ظاهره وباطنه ، وباشر أوله وآخره . وكأنه قد سمع فيه من أقوال المحسنين وإجادة المجيدين ، ما سلك منهجه ، وأخرج كلامه مخرجه . ولكن الله - تعالى - أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة ، وهداهم من مسالك البلاغة ، إلى ما هو ظاهر باهر . ولهذا كان القرآن معجزا وعِلما على النبوة ، لأنه أعجز قوما هذه صفاتهم ونعوتهم^(٤) » . وهو قول قد يدل على أن الإعجاز فى الفصاحة والبلاغة .

(٢) فكرة ٧٠ .

(٤) ٨٣ . فكرة ٧١ .

(١) فكرة ٧٠ .

(٣) فكرة ٧٠ .

الموردى

وأورد على بن محمد الموردي (٣٦٤ - ٤٥٠ / ٩٧٤ - ١٠٥٨) أن إعجاز القرآن من عشرين وجها ، وجعل الصرفة الوجه الأخير منها . وذكر أن من قالوا بها اختلفوا على قولين :

أحدهما : أنهم صُرفوا عن القدرة على معارضته ، ولو قدروا لعارضوه .

الثاني : أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخولها في مقدورهم .

ثم أعلن أن الصرفة إعجاز على القولين ، في قول من نفاها ومن أثبتها .

وقدم قولاً قد يُعترض به ، فقال : فإن قيل : فإن عجزوا عن معارضته بمثله ، لم يعجزوا عن معارضته بما يقاربه وإن نقص عن رتبته ؛ والمعجز ما لم تمكن مقاربتة كما لا تمكن مماثلته .

ثم جاء بجوابين عن هذا الاعتراض :

أحدهما : أن مقاربتة تكون بما في مثل أسلوبه ، والأسلوب ممتنع . فبطلت المقاربة .

والثاني : أن التحدى إنما كان بالمماثل لا المقارب^(١) .

ابن حزم

صرح أبو محمد على بن أحمد المعروف بابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ / ٩٩٤ - ١٠٦٤) بأن المسلمين أجمعوا على أن القرآن معجز . ثم اختلف أهل الكلام في خمسة أنحاء في وجه الإعجاز ، وأعلن أن سائر أهل الإسلام رأوا أن إعجازه في نظمه ، وفيما فيه من الإخبار بالغيوب كليهما . ورأوا أن ذلك هو الحق الذي من خالفه فهو على ضلال^(٢) .

وجعل النحو الرابع من الأنحاء الخمسة التي افترق إليها المسلمون جماعتين :

١ - طائفة قالت : وجه إعجازه كونه في أعلى مراتب البلاغة .

٢ - طوائف قالت : إنما وجه إعجازه بأن الله منع الخلق من القدرة على معارضته

فقط .

وذكر أن الطائفة الأولى احتجت على الثانية بأن ذكرت آيات منه ، مثل قوله :

(١) أعلام ٧٢ - ٣ . الحاكم ٤٤٥ .

(٢) الفصل ٣ / ١٥ - ٧ . العماری ٧٨ . منير ٩٣ . قماوى ٩٩ .

﴿ولكم فى القصاص حياة﴾^(١) وقالت : لو كان الأمر كما تقولون من أن الإعجاز فى منع الله الناس من معارضته ، لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام ، فتكون الحجة بذلك أبلغ^(٢).

ورد عليهم قائلا : ما نعلم لهم شغبا غير هذين ، وكلاهما لا حجة لهم فيه :

١ - أما قولهم : لو كان كما قلنا لوجب أن يكون أغث ... فهذا هو الكلام الغث

حقا لوجوه :

أحدها : أنه قول بلا برهان ، لأنه يعكس عليه قوله بنفسه ، فيقال له : بل لو كان إعجازه لكونه فى أعلى درجات البلاغة ، لكان لا حجة فيه ، لأن هذا يكون فى كل من كان فى أعلى طبقة . وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود . فهذا أقوى من شغبهم^(٣).
وثانيها : أن الله لا يُسأل عما يفعل ، ولا يقال له : لم عجزت بهذا النظم دون غيره؟ ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره؟ ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تقلبها أسدا؟ هذا كله حمق ممن جاء به ، لم يوجبه قط عقل . وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط^(٤) .

وثالثها : أنهم حين طردوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد ، لزمهم أن يقولوا : هلا كان هذا الإعجاز فى كلام بجميع اللغات ، فيستوى فى معرفة إعجازه العرب والعجم ، لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بإخبار العرب فقط . فبطل هذا الشغب الغث^(٥).
٢ - وأما ذكرهم الآيات التى احتجوا على بلاغتها فلا حجة لهم فيها . ويقال لهم : إن كان الأمر كما تقولون ، كان المعجز منه ما ذكرتم من الآيات ، وأما سائره فلا . وهذا كفر لا يقوله مسلم .

فإن قالوا : جميع القرآن مثل هذه الآيات فى الإعجاز .

قيل لهم : فلم خصصتم بالذكر هذه الآيات دون غيرها إذن؟ وهل هذا منكم إلا

إيهام لأهل الجهل أن من القرآن معجزا ومنه غير معجز^(٦)؟

(١) سورة البقرة ١٧٩ . (٢) الفصل ٣ / ١٧ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨٠ .

(٣) الفصل ٣ / ١٧ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨٠ .

(٤) الفصل ٣ / ١٧ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨٠ .

(٥) الفصل ٣ / ١٧ - ٨ . الحمصى ٨١ . العمارى ٨١ . (٦) الفصل ٣ / ١٨ . الحمصى ٨١ .

ثم نقول لهم : قول الله : ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . وآتينا داود زبوراً ﴾^(١) أمعجز هو على شروطكم في كونه في أعلى درجات البلاغة أم ليس معجزاً ؟
فإن قالوا : ليس معجزاً ؛ كفروا .

وإن قالوا : معجز ؛ صدقوا .

وسئلوا : هل على شروطكم في أعلى درجات البلاغة ؟

فإن قالوا : نعم ، كأبروا ، وكفروا مؤنتهم لأنها أسماء رجال فقط ، ليست على شروطهم في البلاغة^(٢) .

٣ - وأيضاً لو كان إعجاز القرآن لأنه في أعلى درجات البلاغة ، لكان بمنزلة كلام الحسن بن سهل وسهل بن هارون والجاحظ ، وشعر امرئ القيس . ومعاذ الله من هذا . لأن كل ما يسبق ما في طبقتة ، لم يؤمن أن يأتي ما يماثله ضرورة . فلا بد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا : إن الله منع من معارضته فقط^(٣) .

٤ - وأيضاً لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة المعهودة ، لوجب أن يكون ذلك للآية ولما هو أقل من آية . وهذا ينقض قولهم : إن المعجز منه ثلاث آيات لا أقل^(٤) .

ثم انتقل إلى إبانة رأيه الخاص والدفاع عنه ، فقال : فإن قالوا : فقولوا أنتم : هل القرآن موصوف بأنه في أعلى درج البلاغة أم لا ؟

قلنا ، وبالله التوفيق : إن كنتم تريدون أن الله قد بلغ ما أراد ، فنعم هو في هذا المعنى في الغاية التي لا شيء أبلغ منها . وإن كنتم تريدون : هل هو في أعلى درجات البلاغة في كلام المخلوقين ؛ فلا لأنه ليس من نوع كلام المخلوقين : لا من أعلاه ، ولا من أدناه ، ولا من أوسطه^(٥) .

(١) سورة النساء ١٦٣ . (٢) الفصل ٣ / ١٨ . الحمصى ٨٢ .

(٣) الفصل ٣ / ١٨ . الجوينى ٥٤ . الحمصى ٨٢ . العمارى ٨٢ .

(٤) الفصل ٣ / ١٨ .

(٥) الفصل ٣ / ١٨ - ٩ . الحمصى ٨٢ . العمارى ٨١ . وانظر أبو زهرة ٧٩ .

وبرهان هذا أن إنسانا لو أدخل في رسالة أو خطبة أو تأليف أو موعظة له حروف الهجاء المقطعة ، لكان خارجا عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك . وإذن فالقرآن ليس من نوع بلاغة الناس أصلا . وضح أن الله منع الخلق من مثله ، وكساه الإعجاز ، وسلبه جميع كلام الخلق^(١) .

وبرهان ثان أن الله حكى عن قوم من أهل النار أنهم يقولون ، إذ سئلوا عن سبب دخولهم النار : ﴿ لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ﴾^(٢) وحكى عن كافر قوله : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ﴾^(٣) ... كل هذا - إذا قاله غير الله - غير معجز بلا خلاف : إذ لم يقل أحد من أهل الإسلام أن كلام غير الله معجز . لكن لما قاله الله ، وجعله كلاما له ، أصاره معجزا ، ومنع من مماثلته . وهذا برهان كاف لا يُحتاج إلى غيره^(٤) .

وفسر محمد أبو زهرة موقف ابن حزم ، فذكر أنه يبدو بادی الرأي غريبا منه . ولكن المتأمل فيه يجده سائرا على مذهبه الظاهري في نفي الرأي ، والحكم بظاهر القول من غير تعليل . فالالتجاء إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته التي علت عن طاقة العرب ، وجعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مرأ ولا جدال ، يعدّ تعليلا . وهو من باب الرأي الذي ينفيه ، والتعليل الذي يجافيه^(٥) .

(١) الفصل ٣ / ١٩ . الحمصي ٨٢ . العماري ٨١ .

(٢) سورة المدثر ٤٣ - ٧ . (٣) سورة المدثر ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) الفصل ٣ / ١٩ . الحمصي ٨٢ . الرافعي ١٦٤ . الحمصي ٨٢ . العماري ٨٢ . الصابوني ٩٩ .

أبو زهرة ٧٩ . عائشة ٧٧ . الزفراف ١٣١ . (٥) المعجزة ٧٩ . خلف الله ٢٣٩ .

ابن سنان الخفاجي

عرف عن ابن سنان الخفاجي (٤٢٣ - ٤٦٦ / ١٠٣٢ - ١٠٧٣) التزامه بمذهب الصرفة ، ودفاعه عنه . فقد ألف فيه كتابا لم يصل إلينا^(١) غير أن ما دوّنه في كتابه الأشهر « سر الفصاحة » ما زال بين أيدينا .

افتتح ابن سنان « سر الفصاحة » بأن القرآن هو المعجز الدال على نبوة محمد ﷺ وأن الناس اختلفوا في وجه إعجازه على قولين :

أحدهما : أنه خرق العادة بفصاحته ، وجرى مجرى قلب العصا حية .

الثاني : أنه صرف العرب عن المعارضة ، مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم^(٢) .

وصرح بأن الفريقين يحتاجان إلى تحقق ما هية الفصاحة . ليعرف أصحاب القول الأول ما وقع فيه التزايد موقعا خرج عن مقدور البشر . وليقطع أصحاب القول الثاني أنها كانت في مقدورهم ، ومن جنس فصاحتهم ، ويعلموا أن مسيلمة وغيره لم يأتوا بمعارضته على الحقيقة^(٣) .

وإذا كان الخفاجي لم يصرح برأيه هنا ، فقد فعل فيما بعد ، وهو يناقش آراء الرماني . فقد أورد تقسيمه للتأليف على ثلاثة أضرب :

١ - متنافر .

٢ - ومتلائم في الطبقة الوسطى .

٣ - ومتلائم في الطبقة العليا .

وأورد إعلان الرماني أن الضرب الثالث هو القرآن كله ، وأن الفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف مثل الفرق بين الضربين الأول والثاني .

(١) ياقوت ٣ / ١٣٩ . العماري ٧٤ . البدرى ١٤٢ .

(٢) سر ٣ - ٤ . الحمصي ٨٤ . العماري ٧٠ . البدرى ١٤١ .

(٣) سر ٤ . العماري ٧١ . وليد ٣١٨ - ٩ .

ثم عقب على ذلك بأن هذا الذى ذكره الرماني غير صحيح ، والقسمة التى صنعها فاسدة ، لأن التأليف على ضربين اثنين فقط :

١ - متنافر .

٢ - متلائم .

وقد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض ، ولا يحتاج أن يُجعل ذلك قسما ثالثا . كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد فى التنافر من بعض ، دون أن يجعل الرماني ذلك قسما رابعا^(١) .

ورفض ابن سنان وضع الرماني القرآن فى الطبقة العليا من المتلائم ، وجميع كلام العرب فى الطبقة الوسطى . وجاهر بأنه لا فرق بين القرآن وفصيح الكلام المختار فى هذا الجانب . ومتى رجع الإنسان إلى نفسه - وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار - وجد فى كلام العرب ما يضاهاى القرآن فى تأليفه^(٢) .

وتساءل : ثم يقال له : أليس التلاؤم هو ما ذكرناه فى تأليف حروف الكلمة المفردة ، أى أن تكون متباعدة المخارج ؟ فلا يملك إلا أن يقول : نعم ، فيقال له : ما عندك فى تأليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفرادها : أهو متلائم فى الطبقة العليا أم فى الطبقة الوسطى ؟

فإن قال : فى الطبقة العليا .

قيل له : أو ليست هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ؟ ولولا ذلك لم يكن القرآن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته . فلا بد أن يجيب بالإيجاب .

فيقال له : لقد أقررت الآن أن فى كلام العرب ما هو متلائم فى الطبقة العليا ، وهو الألفاظ المفردة ، ولم يتحتم عليك فى ذلك ما يفسد وجه إعجاز القرآن . فهلا قلت فى كلامهم المؤلف من هذه الألفاظ ما هو كذلك أيضا ، فإن علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر^(٣) .

(١) سر ٨٨ - ٩ . الحمصى ٨٤ . العمارى ٧١ - ٢ . وليد ٣١٩ .

(٢) سر ٨٩ . ياقوت ٣ / ١٣٩ . الحمصى ٨٤ - ٥ . العمارى ٧٣ . الخطيب ٣٧٢ - ٣ . الملا ٢٥٣ . البدري ١٤٢ . وليد ٣١٩ .

(٣) سر ٩٠ . العمارى ٧٢ . الخطيب ٣٧٥ .

وإن قال : إن كل لفظة من ألفاظ القرآن متلائمة فى الطبقة الوسطى .
قيل له : أولا : مازالت مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم باقية . ثم ما الفرق بينك وبين
من ادعى ان التلاؤم من ألفاظ القرآن فى الطبقة العليا ؟ فإن أحد الموضوعين كالآخر .
على أن اللفظة المفردة يظهر فيها التلاؤم ظهورا بينا ، بقلة عدد حروفها ، واعتبار
مخارجها : فإن كانت متباعدة ، كان تأليفها متلائما ؛ وإن تقاربت ، كان متنافرا . وليس
ينازعنا فى كلمة من كالم القرآن - إذا أوضحنا له تأليفها - ويقول : ليس هذا فى الطبقة
العليا إلا ونقول مثله فى تأليف الألفاظ بعضها مع بعض ، لأن الدليل على الموضوعين
واحد .

فقد بان أن الذى يجب اعتماده أن التأليف على ضربين فقط : متلائم ، ومتنافر ، وأن
تأليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم . ولا يقدر هذا فى وجه من وجوه إعجاز
القرآن^(١) .

وعاد ابن سنان إلى الإفصاح عن رأيه فقال : إذا عدنا إلى التحقيق ، وجدنا وجه
إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التى كانوا بها يتمكنون من
المعارضة عند ما يرومون ذلك . وإذا كان الأمر على هذا ، كنا غير محتاجين إلى ادعاء ما
ذهب الرماني إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وغيره من كلام العرب كما بين
المتنافر والمتلائم^(٢) .

وذكر نعيم الحمصى أن رأى الخفاجى فى الصرفة نفس رأى الشريف المرتضى الذى
خالف رأى النظام قليلا^(٣) .

ولكن عمر الملاحويش ذكر أن ابن سنان أيد النظام فى رأيه^(٤) .

وذكر د . وليد قصاب أنه شايع النظام^(٥) .

والحق إن ابن سنان يتفق مع النظام فى كون القرآن مماثلا لكلام العرب الفصحاء ،
وأنهم - لولا الصرفة - كانوا قادرين عليه ؛ ويتفق - فى الوقت نفسه - مع الشريف
المرتضى فى جعل الصرفة سلبا لعلوم العرب التى كانت تمكنهم من المماثلة فى المعارضة .

(١) سر ٩٠ . (٢) سر ٨٩ . الحمصى ٨٥ . العمارى ٧٣ .
الخطيب ٣٧٢ - ٤ . الملا ٢٥٤ . الدبل ٣١ . وليد ٣١٨ - ٩ .
(٣) فكرة ٨٥ . فقهى ٧٣ . (٤) تطور ٢٥٣ . (٥) التراث ٣١٨ .

ورد العمارى على ابن سنان ، فقال : لسنا نرى فى كلامه ما يجعلنا نؤمن بهذا المذهب ، لأنها دعوى يعوزها الدليل . وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله : إن تأليف القرآن من منهج تأليف كلام العرب فى تلاؤم الألفاظ ، لأن الكلمات المفردة هى كلماتهم ، فلا بد أن تكون الأساليب أساليبهم . ولا ندرى كيف ذهب عليه أن الكلمات قد تكون واحدة ، ولكن الفصحاء يختلفون فى صياغتها ، ألا ترى قطعة الذهب تكون فى يد أحد الصائغة صورة رائعة جذابة ، وفى يد آخر بلدية ساذجة ، وهى هى فى الأصل^(١) .

ورد عبد الكريم الخطيب على ابن سنان . فذكر أن رأيه الذى دفع به إعجاز القرآن من جهة فصاحته رأى فائل متهافت ، لأنه أقامه على قصور الحجة التى احتج بها الرماني على فصاحة القرآن . وهذه الحجة التى قال بها الرماني لم تكن هى كل ما قال فى وجوه الإعجاز ، كما أنه لم يجعل الفصاحة فى سلامة الحروف من التنافر فقط^(٢) .

وتوسع فى الرد الذى أتى به العمارى . فوصم تسويته بين الألفاظ المفردة المبعثرة فى كل وجه والكلام المنظوم بالمغالطة أو الظلم وعدم القيام على منطق من الحق أو شاهد من الواقع . فلو صح هذا رأى لما كان هناك تفاوت بين قول وقول ، أو بين شاعر وشاعر ، أو كاتب وكاتب ، إذ كانوا جميعا يبنون ما يبنون من أساليب البيان من كلمات معروفة لهم جميعا . وإنما تتفرق بهم السبل ، وتختلف المنازل ، فيعلو بعضهم ، ويسفّ بعضهم ، حين ينظمون هذا الكلم المفرد فى أساليب من القول ؛ وحين يبنون من هذه الكلمات ما يدور فى عقولهم من معان ، وما يختلج فى صدورهم من مشاعر وعواطف^(٣) .

(٢) إعجاز ٣٧٤ .

(١) حول ٨٥ . البدرى ١٤٢ ، ١٥٠ .

(٣) إعجاز ٣٧٥ - ٦ .

الجوينى

أعلن إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى (٤١٩ - ٤٧٨ / ١٠٢٨ - ١٠٨٥) أن الناس أكثروا وتفرقوا فى وجه إعجاز القرآن ، وأنه موقف تاه فيه الأولون والآخرون ، ونبح فيه الطاعنون .

ثم وعد أن يدلى فيه فى مسلك الحق المبين ، ويبين على أوضح الوجوه اندفاع تمويهات الزائعين ، وانتقاض مطاعن المبطلين .

ومهد لرأيه باعلان أن الفصاحة لا تصلح وجها للإعجاز : قال : فليعلم المشتهى إلى ذلك أن من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه فى جزالته خارق للعادة ، مجاوز فى الفصاحة أقدر البلغاء واللُّسن والفصحاء ، فقد حاد عن مدرك الحق .

وعلل هذا الحكم بما يلى :

- من تأمل كلام العرب فى نظمها ونثرها لم يتحقق عنده انتهاء جزالة القرآن إلى حد الخروج عن العادة فى الزيادة على كلام الفصحاء . ومن تكلف إثبات ذلك فقد تكلف شططا وظن غلطا .

- لو ظهرت زيادة فى مرقى القرآن عن رتب الكلام ، فليس فيه مَنع . فإنه قد يبقى فى بعض الأعصار رجل تفرد فى شعر أو نثر لا يُدرك شأوه . وقلما يخلو عصر من مبرز لا يوازى فى فنه . ولا يثبت الإعجاز بمثل ذلك .

وأخيرا كشف عن رأيه فقال : الوجه ألا يدعى بلوغ جزالة القرآن مبلغ خرق العادة . ونقول : تحدى النبى ﷺ فصحاء العرب أن يأتوا بمثله . وتمادى على تحديه نيفا وعشرين سنة ، والقرآن بلغتهم ، وليس بعيدا من مبلغ اقتدارهم فى جزالته وأسلوبه ، فلم يقدرُوا على الإتيان بمثله . ثم استأثر الله برسوله ، وكرت العصور ، وأقطار الأرض تطفح بجميع الكفار ، ذوى الفطن النافذة ، يبحثون عن مطعن فى الإسلام . وفى كل قطر منهم طائفة مشغولون بالنظم والنثر على لغة العرب . فقصروا عن المعارضة . فتبين قطعاً أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدوراتهم .

ثم أخذ يدافع عن رأيه فقال :

- ذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها .
- ومن هدى لهذا المسلك فقد أرشد إلى الحق المبين ، وانعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا . فإنهم تارة يدعون سقوط القرآن عن رتبة الجزالة ، وولوجه في الركيك . وتارة يسلمون بشرف جزالته ، ويدعون أنه غير خارق للعادة . وكيف تصرفت أسئلتهم فصرفُ الله الخلقَ عن الإتيان بمثله أنجع وأوقع .
- كلما كان الكلام أقرب مأخذا : وأبعد عن الغاية القصوى ، كان أحرى أن يتندر إلى معارضته . فإذا لم تجر المعارضة ، لم يبق - مع توفر الدواعي عليها - محمل إلا صرف الله الخلق .

- هذا الفصل من أنفس ما يجرى به خاطر ، وهو بالغ جدا ، أبلغ من قلب العصا حية ونحوه . فإنه قد يسبق مبادر إلى أنه من خصائص صاحب المعجزة بمزايا في العلوم تؤدي إليها . أما عجز الخلائق خمس مئة سنة عن معارضة كلام مماثل لكلامهم ، أتى به رجل أمي ، لم يعان العلم ولم يدارس أهله ، فلا محمل له إلا صرف الله الخلق ومنعهم^(١) .

الراغب الأصفهاني

كذلك كان أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢ / ١١٠٨) من أنصار الصرفة والنظم معا . يتضح ذلك من قوله : أما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضا إذا اعتبر . وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال ، محمودة كانت أو مذمومة ، إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات إلهية ، بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف ، فينشرح صدره بملاستها ، وتطبعه قواه في مزاولتها . فيقبلها باتساع قلب ، ويتعاطاها بانشرح صدر . وقد تضمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾^(٢) وقول النبي ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

(١) العقيدة ٥٤ - ٦ . عياض ٧٤٠ - ١ . (١) سورة المائدة ٤٨ .

فلما رُئى أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمنون فى كل واد من المعانى بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن ، وعجزهم عن الإتيان بمثله ، وليس تهتز غرائزهم البتة للتصدى لمعارضته ؛ لم يخفَ على ذى لب أن صارفا إلهيا يصرفهم عن ذلك. وأى إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة فى الظاهر أن يعارضوه ، ومجبرة فى الباطن عن ذلك^(١) .

القاضى عياض

جعل القاضى عياض بن موسى اليحصبى (٤٧٦ - ٥٤٤ / ١٠٨٣ - ١١٤٩)
المعجزة على ضربين :

- ضرب خارج عن قدرة البشر كإحياء الموتى ، وقلب العصاحية .
- وضرب من نوع قدرة البشر ، وإنما تعجيزهم عنه فعلٌ لله ، يدل على صدق نبيه ، كصرف اليهود عن تمنى الموت تحقيقا للآية الرابعة والتسعين من سورة البقرة ، وتعجيز العرب عن الإتيان بمثل القرآن على رأى بعضهم^(٢) .
- ثم ذكر وجوها متعددة للإعجاز . وبعد أن فرغ منها ذكر مذهب الصرفة مع قدرة البشر على معارضة القرآن ، وعقب عليه بأن بين المذهبين فرقا بينا ، وعليهما جميعا أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله ، والنكول عن معارضته . ثم أورد قول الجوينى فى الصرفة^(٣) . ورأى نعيم الحمصى فى هذا إثباتا مبهما للصرفة^(٤) .

(١) مقدمة جامع التفاسير ١٠٨ - ٩ . معرك ١ / ٤ ، ٦ . الإتيان ٢ / ١٣٨ - ٩ . الحمصى ١٣٦ - ٨ ، ١٥٤ ، ٤٥٢ . صالحه ٦٩ ، ٧١ - ٢ .

(٢) الشفا ٤٩١ . (٣) الشفا ٧٤٠ . الإتيان ٢ / ١٤١ .

(٤) فكرة ٩٢

الرازي

تذبذبت أقوال فخر الدين محمد بن عمر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦ / ١١٥٠ - ١٢١٠) .
فقد ذكر للإعجاز عدة وجوه ، ثم قال والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب
الفصاحة . وفند الصرفه بعدة ردود^(١) .

ولكنه أتى في تفسير آية التحدى في سورة البقرة بما يشعر أنه يميل إلى الصرفه . قال :
فإن قيل : قوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾^(٢) . يتناول سورة الكوثر ، وسورة العصر ،
وسورة الكافرون ، ونحن نعلم أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منها ممكن ؟
فإن قلتم : إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر ؛ كان ذلك مكابرة.
والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين .

قلنا : فهذا السبب اخترنا الطريق الثاني ، وقلنا : إن بلغت السورة في الفصاحة إلى
حد الإعجاز ، فقد حصل المقصود . وإن لم يكن الأمر كذلك ، كان امتناعهم عن
المعارضة - مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره - معجزا . فعلى هذين التقديرين يحصل
المعجز^(٣) .

ونعيم الحمصى على حق ، حين يعلق على هذا الموقف فيقول إن فخر الدين الرازي
ينكر الصرفه في كتاب ، وينصرها في آخر ، ويجمع في ثالث بين النقيضين : الصرفه
والبلاغة ، دون أن يرى مانعا عقليا من ذلك^(٤) .

وواضح أن الرازي يقصر وجه الصرف على السور القصار ، أما غيرها فيرى الفصاحة
وجهها .

(١) التفسير ٢ / ١١٥ ، ١٧ / ٩٥ ، ١٩٥ . نهاية ٥ ، ٧ . عائشة ٧٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٣ .

(٣) التفسير ٢ / ١١٧ .

(٤) فكرة ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ٤٥٢ .

الطوسي

وأورد نصير الدين محمد بن محمد الطوسي (٥٩٧ - ٦٧٢ / ١٢٠١ - ١٢٧٤) عدة وجوه للإعجاز ، ثم قال : أقول : إعجاز القرآن - على قول قدماء المتكلمين وبعض المحدثين - في فصاحته - وعلى قول بعض المتأخرين - في صرف عقول الفصحاء القادرين على المعارضة عن إيرادها . قالوا : كل أهل صناعة اختلفوا في تجويد تلك الصناعة ، فلا محالة يكون فيهم واحد لا يبلغ غيره شأوه ، ويعجز الباقون عن معارضته . ولا يكون ذلك معجزا ، لأن ذلك لا يكون خرقا للعادة . لكن صرف عقول أقرانه القادرين على معارضته يكون خرقا للعادة . فذلك هو المعجز^(١) .

ونعيم الحمصي على حق ، حين يعلق على هذا الموقف ، فيرى أنه يتضح من هذا النص أن الطوسي ذكر ما يراه غيره من القدماء والمحدثين في الإعجاز بالفصاحة أو بالصرفة ، دون أن يرجح رأيا على آخر^(٢) .

ابن النقيب

أورد جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان البلخي (٦١١ - ٦٩٨ / ١٢١٤ - ١٢٩٨) عدة وجوه للإعجاز ، وما وُجِّه إليها من نقد ورد . ثم أنهى حديثه قائلا : وكل واحد من هذه الأقوال يحتمل أن يكون معجزة ، إذا تحدى بها الرسول ﷺ وعجزوا عن الإتيان بمثل ما تحدى به .

والذي يتعين اعتقاده : أن القرآن - بجملة ألفاظه ومعانيه ، وبعضه وكله - معجزة . إما لسلب قدرتهم عن الإتيان بمثله ، وإما لصرْفهم عنه . لأن النبي ﷺ تحدى به ، وعرض عليهم الإتيان بمثله ، فعجزوا عن ذلك . ولأن الله أخبر أنهم لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . هذا الذي وقع عليه تصريح الكتاب ، وصریح الكتاب . ولا مريّة في ذلك ولا خلاف^(٣) .

(٢) الحمصي ١٠٩ .

(١) تلخيص المحصل ٢٠٨ .

(٣) مقدمة ٥٢٠ - ١ . الحمصي ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ٤٥١ .

فأبان أنه جمع بين البلاغة والصرفة ، على الرغم من سبق رده عليها . وعلل نعيم الحمصي موقفه هذا بأن الذى دفعه إليه هو اعتقاده بأن المؤمن يجب أن يسلم تسليمًا مطلقًا بإعجاز القرآن وصحة النبوة^(١) .

ابن تيمية

ونثر شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨) حديثه عن إعجاز القرآن فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

فبدأ بالقول : كون القرآن معجزة : ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه فقط .. ولا من جهة صرف الدواعى عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط . بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة^(٢) . ثم قال : وكل ما ذكره الناس من الوجوه فى إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ، ولا يناقض ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

وختتم بالقول : ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بالصرفة ، التى أبان تعريفاتها وما يقال فى التدليل عليها فقال : - صرف الدواعى ، مع قيام الموجب لها .

- سلب القدرة الجازمة ، بصرف الله قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام .

- سلب القدرة المعتادة فى مثله سلبا عاما ، مثل قوله - تعالى - لذكريا : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾^(٣) . فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل . وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة ، مع قيام الدواعى العظيمة إليها من أبلغ الآيات الخارقة للعادات . وهو بمنزلة من يقول : إنى آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم ، وأضربهم جميعهم ،

(٢) الجواب ٤ / ٧٤ .

(٤) الجواب ٤ / ٧٥ ، ٧٧ . الصباغ ٦١ . ٢ .

(١) الحمصي ١٤٤ .

(٣) سورة مريم ١٠ .

وأجوعهم - وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله ، أو إلى ولي الأمر - وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكى . فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة (٤) .

نتبين من هذه الأقوال أن ابن تيمية لم يرفض الصرفة رفضا باتا ، وإنما رأى القول بها أضعف الأقوال .

العلوى اليمنى

وحاول يحيى بن حمزة العلوى (٦٦٩ - ٧٤٥ / ١٢٧٠ - ١٣٤٤) أن يثبت إعجاز القرآن بطريقة جدلية ، فقال : ليس يخلو الإتيان بمثل لكل واحدة من سور القرآن : إما أن يكون معتادا .

أو غير معتاد .

فإن كان معتادا ، كان سكوت العرب ، مع فصاحتهم ، وشدة عداوتهم للرسول ﷺ وتوفر دواعيهم على إبطال أمره ، لا محالة من أبهر المعجزات .

وإن لم يكن معتادا . كان القرآن معجزا ، لخروجه عن المؤلف والمعتاد . فثبت - بما ذكرناه - أن القرآن سواء كان خارقا للعادة أو لم يكن ، فإنه يكون معجزا (١) .

وعلق نعيم الحمصى على هذا القول قائلا : هنا يبدو لنا صاحب الطراز مناصرا للرأى الصرفة ، إلى جانب الرأى بمخرق القرآن للعادة ، دون أن يبين سبب خرقه - بيد أنه لا يجوز الاعتماد على هذا القول لأن هذا الدليل جدلى ، غير مقنع . وكان عليه أن يسعى لتقرير الحقيقة وإثباتها علميا . فهل وقع التحدى والعجز أو لا أولا ؟ ثم هل للقرآن مميزات واضحة على غيره من الكلام ، أو ليس له ذلك ثانيا ، بدلا من اللجوء إلى مثل هذه الحجة المطاطة (٢) ؟

وقد خان الصواب الحمصى فى هذا التعليق . فقد أجاب العلوى فى بقية الفصل الذى عقده لبيان كون القرآن معجزا عن الأسئلة التى أتى بها ، ورد على القول بالصرفة ، وأورد الوجوه الأخرى للإعجاز ، وجعل المبحث الثالث من هذا الفصل لبيان ما اختاره

(٢) فكرة ١٣٣ .

(١) الطراز ٣ / ٣٨٦ .

(٣) الطراز ٣ / ٤٠٤ - ٥ .

من هذه الأقاويل ، وهو فصاحة الألفاظ ، وبلاغة المعانى ، وجودة النظم ، وحسن السياق (٣) .

وبعد أن عزا العلوى الصرفة إلى النظام والنصيبي من المعتزلة ، والشريف المرتضى من الإمامية ، أتى بالتعريفات الثلاثة التالية لها :
الأول : أن يريدوا بها أن الله سلب دواعيهم إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعى حاصلة .

الثانى : أن يريدوا بها أن الله سلبهم العلوم التى لا بد منها فى الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه . ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيهه على وجهين : أحدهما أن يقال إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار ، لكن الله أزالها عن أفئدتهم وثانيهما أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم ، خلا أن الله صرف دواعيهم عن تجديدها ، مخافة أن تحصل المعارضة .

الثالث : أن يراد بها أن الله منعهم على جهة القسر عن المعارضة ، مع كونهم قادرين (١) .

وعلق نعيم الحمصى على هذه التفسيرات ، فذكر أن واحدا منها يطابق رأى النظام - يريد التفسير الأول - وآخر يؤيد رأى المرتضى - يريد الثانى - ولم يدر من أين أتى بالتفسير الثالث (٢) .

والحق إن هذا التفسير الثالث هو رأى النظام أيضا ، كما حكاه الأشعرى وابن حزم .

ابن كثير

وقال عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ / ١٣٠٢ - ١٣٧٣) : قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصرفة ، فقال : إن كان هذا القرآن معجزا فى نفسه ، لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ، فقد حصل المدعى ، وهو المطلوب . وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ،

(١) الطراز ٣ / ٣٩١ - ٢ . الحمصى ١٣٣ . العمارى ٧٣ . (٢) فكرة ١٣٣ .

ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له ، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله ، لصفه إياهم عن معارضته ، مع قدرتهم على ذلك .

وهذه الطريقة - وإن لم تكن مرضية لأن القرآن فى نفسه معجز - إلا إنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق - وبهذه الطريقة أجاب الرازى فى تفسيره عن سؤاله فى السور القصار كالعصر والكوثر^(١) .

وعلى الرغم من ذلك ، رفض ابن كثير قول الرازى ، وأعلن أن الصواب أن كل سورة من القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر معارضتها ، طويلة كانت أو قصيرة^(٢) .

وعلقت د. عائشة عبد الرحمن على هذا الموقف قائلة : المسألة - كما ترى - قد عولجت فى مجال الجدل النظرى ، وإن آلت بالمعتزلة أنفسهم - بعد الجيل الأول من شيوخهم - إلى أن اعتبار الصرفة وجها من وجوه الإعجاز لا يعطل النظر فى وجه إعجازه البلاغى . والذين ذكروا الصرفة ، من غير المعتزلة ، استيعابا لمذاهب المتكلمين فى الإعجاز ، لم يلبثوا أن خصوا إعجازه البلاغى بالناية والاهتمام^(٣) .

الآلوسى

ويدلنا على أن المتأخرين لم يعودوا تفزعهم الصرفة ونظروا إليها باعتبارها أحد وجوه الإعجاز قول السيد شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسى (١٢١٧ - ١٢٧٠ / ١٨٠٢ - ١٨٥٤) بعد أن رد عليها بأربعة ردود : لا بأس بانضمامه إلى ما ذكرناه [من وجوه] . وأما الاكتفاء به فلا أظنك ترضاه^(٤) .

(١) التفسير ١ / ٦١ . الحمصى ١٥٠ . عائشة ٧٨ . أبو موسى ٣٥٨ .

(٢) التفسير ١ / ٦٢ . الحمصى ١٥٠ ، ١٥٤ .

(٣) الإعجاز ٧٩ . (٤) روح ١ / ٢٨ - ٩ .

الفصل الثانى

الرد على القول بالصرفة

لما كان القول الأول بالصرفة اعتمد على القول بأن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن ، فقد أنكرت جماعة المسلمين هذا المذهب إنكارا شديدا . وانتهالت على أصحابه بالتحريح بل بالاتهام بالخروج عن الإسلام جملة . وليس فى نيتى الاهتمام بهذه الاتهامات ، وإنما يعينى الأقوال التى سعت إلى تنفيذ المذهب ومناقشة أصحابه . وربما كان أول من فعل ذلك - كما مر بنا - الجاحظ ، الذى يبدو أنه سائر أستاذه النظام فى شبابه ثم عدل إلى القول بالنظم ، وألف كتابا عنه ، رد فيه على أقوال النظام وغيره ممن وصفهم بالطعن فى القرآن . وإليك الردود التى عثرت عليها مرتبة ترتيبا زمنيا .

١ - اعتمد أقدم رد وصل إلينا على التعارض القائم بين هذا المذهب وآية التحدى فى قوله تعالى : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾^(١) . وكان الذى أعطانا هذا الرد أحمد بن يحيى الراوندى^(٢) (٢٩٨ / ٩١٠) .

وكشف الخطابى عن هذا التعارض فصرح أن الله أشار فى الآية إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد . ولا تلائم هذه الصفة المعنى الذى ذكره فى الصرفة^(٣) .

وأيد القاضى عبد الجبار الخطابى ، وذكر أن هذا المذهب يبطل آية التحدى ، لأنها تدل على تعذر مثله عليهم ، ولأنه لا يقال فى الجماعة - إذا امتنع عليها الشىء - : إن بعضها يكون ظهيرا لبعض ، لأن المظاهرة والمعاونة إنما تمكن مع القدرة ، ولا تصح مع

(٢) الانتصار ٢٨ .

(١) سورة الإسراء ٨٨ .

(٣) بيان ٢١ . البغدادي ١٤٣ . الزملكاني ٥٤ . عائشة ٧٧ . الملا ٢٤٢ . عتر ٢٠٧ . خلف الله

٢٤٠ . كفافي ١٤٠ . البدرى ١٥٢ - ٣ .

العجز والمنع . ويبين هذا أنهم لو كانوا قادرين متمكين لما أمكنهم أن يأتوا بمثله . ولا يكون كذلك إلا لمزية ذاتية فيه^(١) .

وأضاف عبد القاهر الجرجاني أنه لا يقال للشيء يُمنعه الإنسان بعد أن كان قادرا عليه ، وكان يكثر مثله منه : « إني قد جئتكم بما لا تقدرُونَ على مثله ، ولو احتشدتم له ، ودعوتم الإنس والجن إلى نصرتكم فيه » . وإنما يقال : « إني أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه ، وأمنعكم إياه ، وأن أفحكم عن القول البليغ » وما شاكل هذا . ونظيره أن يقال للأشياء : « إن الآية أن تعجزوا عن رفع ما كان يسهل عليكم رفعه^(٢) » .

وأضاف الزركشى إلى قول القاضى عبد الجبار أن الآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم . ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلة هذا الاجتماع منزلة اجتماع الموتى . وليس عجز الموتى بأمر كبير يُحتفل بذكره^(٣) .

ورفض د. عمر الملاحويش اعتماد الخطابى - وغيره - على الآية فى رد مذهب الصرفة . وعدّ ذلك حجة غير قاطعة ، وقال : إن الخطابى لم يذكر سوى أن هذا الرأى فى الإعجاز لا يتفق والآية ، وكان يجدر به أن يبين وجه عدم اتفاق رأى النظام معها ، ولكنه سكت عن ذلك . واستطرد : ربما كان الخطابى مسبقا بحجته التى دفع بها الصرفة ، ولذلك اكتفى بمجرد ذكر الآية مع تعليق بسيط ، مما يدل على أنه قد أخذه عن غيره . ولو لم يكن الأمر كذلك لناقشة ، وأوضح حجته فى رفضه له .

وأعلن د. عمر أن الآية لا تصلح لاستشهاد الخطابى - ولو أن كثيرا من العلماء احتجوا بها - لأنها لا تتضمن ما يمنع القول بالصرفة . وإنما كل ما فيها أن الله أخبر فيها أن الإنس والجن لا يستطيعون - ولو تظاهروا - أن يأتوا بمثل القرآن - ولم يرد فيها سبب عدم الإتيان : أهو عدم القدرة على مجاراته أم الصرفة أم سبب آخر؟^(٤)

(١) المغنى ١٦ / ٣٢٣ ، ٣٢٥ . وانظر الرازى ٢ / ١١٩ - ٢٠ .

(٢) الشافية ١٣٦ ، ١٣٨ . دلائل ٦١٥ ، ٦١٨ . عتر ٢٠٧ . أبو على ١٣٣ .

(٣) البرهان ٢ / ٩٤ . الإتيان ٢ / ١٣٦ . الألوسى ١ / ٢٨ . القطان ٢٦١ . الخطيب ٣٦٥ . الملا ٢٥٠ .

١ - الصباغ ٦٣ . عبد القادر ٦٧ . خلف الله ٢٤٢ . قمحاوى ٢٦ . عطا ٢٤٠ . رزور ١٩٩ .

(٤) تطور ٢٤٧ ، ٢٥١ .

وحقا سبق ابن الراوندى الخطابى فى الاعتماد على الآية لرفض مذهب الصرفه .
ولكن وصف الملا الخطابى بالسكوت وعدم إبانة وجه الاختلاف بين المذهب والآية ،
وصف ينطبق على ابن الراوندى لا الخطابى ، الذى أبان وجه الاختلاف ، واعتمد كل
من جاء بعده على بيانه ثم بنوا عليه .

٢ - وناقش أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٣٣٨ - ٤٠٣ / ٩٥٠ - ١٠١٣)
مذهب الصرفه نقاشا عقليا فى كتاب « نكت الانتصار^(١) » ، ثم أورد فى « إعجاز
القرآن » الردود التالية :

أورد الباقلانى قول من دافع عن الصرفه بأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لا
يعجز عن نظم مثلهما ، فإذا قدر على ذلك قدر على ضم القول الثانى إلى الأول ،
وكذلك الثالث ، حتى يتكامل قدر الآية والسورة ، واستنتج أن العرب كانوا قادرين على
الإتيان - على هذا النحو - بمثل القرآن ، لولا الصرفه .

ثم رد عليه بأنه لو صح ذلك لصح لكل من أمكنه نظم ربع بيت أو مصراع من بيت،
أن ينظم القصائد ، وصح لكل ناطق - قد يتفق فى كلامه الكلمة البديعة - صوغ الخطب
البليغة ، والرسائل العجيبة . ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن^(٢) .

٣ - وذهب الباقلانى إلى أن الإعجاز لو كان بالصرفه لاستغنى عن إنزال القرآن على
النظم البديع ، وكان مهما حُط عن رتبة البلاغة أبلغ فى الأعجوبة^(٣) .
وعبر القاضى عبد الجبار عن هذا الرد بأن قال : إن الصرفه توجب أن يكون الكلام
المتوسط أو الركيك والكلام الفصيح - فى الإعجاز - بمنزلة واحدة^(٤) .

وقال الحاكم الجشمى : لو كان الإعجاز بالصرفه لكان الأذون فى الفصاحة أكد فى
الإعجاز ، غير أنه لا يصح التحدث به^(٥) .

وقال أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى (٥٤٨ / ١١٥٣) : لو كان وجه الإعجاز
الصرفه لكان الركيك من الكلام أبلغ فى باب الإعجاز^(٦) .

(١) ٢٨٦ - ٩٢ . (٢) إعجاز ٢٩ . الملا ٢٤٨ - ٩ . عتر ٢١١ . منير ٩٨ .

(٣) إعجاز ٢٩ . بدوى ٤٨ . الحمصى ٧٥ . البوطى ١٥١ . الملا ٢٤٩ . الصباغ ٦١ . منير ٩٨ .
زرزور ١٩٨ . (٤) المغنى ١٦ / ٣٢١ ، ٣٢٥ . عتر ٢٠٨ .

(٥) ٤٤٦ . (٦) مجمع ١٢ / ١٤٧ . الرازى ١٧ / ١٩٥ . الحمصى ٩٨ . البدرى ١٥٣ .

وقال عبد الكريم الخطيب : لو أن القرآن جاء معتمدا على هذا الإعجاز الحسى ، لما كان لمجيئه على تلك الصورة الكلامية معنى ، ولكان يمكن أن يستغنى عنه بأهون شىء ، يقطع ما بين النبي وقومه من جدل . كان يكفي أن يضع الله بين يدي نبيه حصاة ، ثم يأمر نبيه أن يدعو قريشا إلى حملها ، ثم يكون من تدبير الله أن يأخذ على أيدي القوم فلا تمتد إليها ، أو يأخذ على قواهم فلا تقدر عليها^(١) .

٤ - وقال الباقلانى : لو كان المشركون قد صُرفوا ، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يُعدّل به فى حسن النظم والبلاغة ، لأنهم لم يُتحدّوا إليه ، ولم تلزمهم حجته . فلما لم يوجد فى كلام من قبله ما يماثله ، عُلم أن دعوى الصرفة ظاهرة البطلان^(٢) .

ورد القاضى عبد الجبار على قول الشريف المرتضى إن الله أعدم العرب العلوم التى يمكن معها الإتيان بالكلام الفصيح ، دون أن يذكر اسمه ، فقال : لست تخلو فيما ادعيت من وجهين :

- إما أن تقول : قد كان ذلك القدر من العلم حاصلًا من قبل ، معتادا بينهم ، فمُنعوا منه عند ظهور القرآن .

- أو تقول : إن المنع من ذلك مستمر لم يجدّ [فى الإسلام] ، وإنهم لم يختصوا لاهم ولا من تقدمهم بهذا القدر من العلم .

فإن أردت الوجه الأول ، فقد كان يجب أن يكون قدر القرآن فى الفصاحة قدر ما جرت به العادة من قبل ، وإنما مُنعوا من مثله فى الإسلام . ولو كان الأمر كذلك لم يكن القرآن معجزا ، لكونه مساويا لكلامهم ، ولتمكّنهم - من قبل - من صوغ مثله فى قدر الفصاحة .

وإن أردت الوجه الثانى ، فهو الذى يعول عليه ، لأننا نجعل للقرآن المزية فى الفصاحة ، من حيث يحتاج إلى قدر من العلم لم تجر العادة بمثله لديهم .

(١) إعجاز ٣٦٦ . (٢) إعجاز ٣٠ . نكت ٢٨٩ . نهاية ٦ . ابن النقيب ٥٢٠ . بدوى ٤٨ . الحمصى ٧٥ . العمارى ٦ . البوطى ١٥١ . أبو زهرة ٨٠ . الملا ٢٤٩ . الصباغ ٦١ . عبد القادر ٦٦ . عتر ٢١٢ . منير ٩٨ . زررور ١٩٨ . قصاب ٣١٨ . البدرى ١٥٤ .

ووصل هذا الرد إلى أقصى وضوح له عند الزملكاني (١٢٥٣/٦٥١) الذى قال فى عبارة مختصرة : لو كان الأمر كذلك لكان ينبغى أن يعارضوه بما قالوا من كلام فصيح قبل صرفهم عنه^(١) .

كذلك قال العلوى اليمنى : لو حصلت الصرفة لكان فى كلام العرب السابق للقرآن أو اللاحق له ما يساويه^(٢) .

٥ - وقال الباقلانى أيضا : لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن القرآن معجزا ، وإنما يكون المنع هو المعجز . ولا يتضمن القرآن - فى تلك الحالة - فضيلة فى نفسه على غيره^(٣) .

وعبر القاضى عبد الجبار عن هذا الرد بأن الله لو كان منعهم من الإتيان بمثل القرآن ، لكان المعجز ما حدث لهم من المنع . وكان التحدى يجب أن يقع بذلك المنع لا بالقرآن حتى لو لم ينزل الله القرآن ، وجعل دليل نبوة محمد ﷺ امتناع الكلام عليهم ، على الوجه الذى اعتادوه ، لما اختلف وجه الإعجاز^(٤) .

وجلى أن الباقلانى بذل الجهد كله فى دفع القول بالصرفة ، والرد على أصحابه . وعلى الرغم من ذلك ، هناك نص عنده ، يسوغ القول بأن الباقلانى من أصحاب رأى غريب من آراء الصرفة . قال وهو يصف موقف العرب إزاء التحدى القرآنى : « أقدّرهم [الله] على حد محدود ، وغاية فى العُرف مضروب ، لعلمه بأنه سيجعل القرآن معجزا ... ولو لم يكن جرى فى المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزا ، لكان يجوز أن تجرى عادات البشر بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة ، وأمر يفوق ما عرفوه^(٥) » .

(١) البرهان ٥٣ . الإيجى ٣٥٣ . الشريف الجرجانى ٨ / ٢٤٩ . الألوسى ١ / ٢٨ . الزرقانى ٢ / ٣١٤ . النبأ ٨١ .

(٢) الحمصى ١٣٤ . الخطيب ٨٠ .

(٣) إعجاز ٣٠ التمهيد ١٢٩ . الشافية ١٣٨ . دلائل الإعجاز ٦١٩ . ابن النقيب ٥٢٠ . الإيجى ٣٥٢ . الزركشى ٢ / ٩٤ . الشريف الجرجانى ٨ / ٢٤٩ . الإنقان ٢ / ١٣٧ . الألوسى ١ / ٢٨ . بدوى ٤٩ . الحمصى ٧٥ . القطان ٢٦١ . حميدة ٣٥ . البوطى ١٥١ . الصابونى ٩٩ ، ١٤٢ . الخطيب ٣٦٥ . أبو زهرة ٨٠ . الملا ٢٤٩ - ٥١ . اتجاهات مطلوب ١٤٣ - ٤ . الصباغ ٦١ ، ٦٣ . عتر ٢٠٧ . منير ٩٨ . حلف الله ٢٤١ . عطا ٢٤١ . زرور ١٤٩ . الزفراف ١٣١ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٣٢٢ ، ٣ - ٣٢٥ : (٥) إعجاز ٢٨٩ .

لم يردّ الباقلاني - إذن - عجز العرب في هذا النص إلى حدود القدرة البشرية التي فطرهم الله عليها . ورأى أن الله خلقهم على هذه القدرة القاصرة لأن علمه سبق بالتحدي والمستوى القرآني فخلقهم أدنى منه ، وتلك - فيما أرى - سقطة من الباقلاني أسوأ من القول بالصرفة .

٦ - وقال القاضي عبد الجبار : لا يكون المنع من الكلام إلا بما يجرى مجرى المنافي له ، أو بأمر يختص محله وآلته ، أي بما يضاد القدرة ، أو يغير حال الآلة والبنية . وما هذا حاله يؤثر في صحة الكلام أصلاً .

وقد علمنا أن من كان في زمانه ﷺ من الفصحاء ، لم يتعذر الكلام عليهم . فلا يصح أن يقال : إنهم اختصوا بمنع لم يلحق النبي ﷺ (١) .

٧ - ورد القاضي عبد الجبار على من يقول : إن الدواعي توفرت عند العرب لمعارضة القرآن ، غير أن الله صرفهم بجنس من الدواعي ، قائلاً : إن هذا يوجب إثبات ما لا يعقل من الدواعي (٢) .

٨ - وأجرى القاضي عبد الجبار الحوار التالي بين من يؤمن بالصرفة ومن يرفضها . قال : فأما قول من يقول : إنه - تعالى - صرف همهم ودواعيهم عن المعارضة ، فلذلك صار القرآن معجزاً ،

فليس يخلو من أن يريد :

- أنهم لو لم تنصرف دواعيهم ، كان يمكنهم أن يأتوا بمثله .

- أو يقول : كان لا يمكنهم ذلك .

فإن قال : إن دواعيهم لو توفرت ما كان ذلك يمكنهم ؛

فذلك هو حال القرآن .

وإن قال : إن دواعيهم لو توفرت لأمكنهم أن يأتوا بمثله ، لكنهم صُرفوا عن الدواعي،

وصُرفت همهم عن ذلك ، واشتغلوا بالمحاربة ،

(١) المغني ١٦ / ٢١٨ ، ٣٢٢ . عائشة ٧٣ . لاشين ٤٨٣ . وانظر الشافية ١٣٣ .

(٢) المغني ١٦ / ٢٢٠ . عائشة ٧٥ . لاشين ٤٨٣ .

قيل له : ومن أين لك أنهم بهذه الصفة ؟ لكنهم علموا أن ذلك لا يواتيهم ، وضاق به ذرعهم ، فعدلوا إلى الطريقة الممكنة لهم ، وهى القتال .
فإن قال : لأنه لو كانت دواعيهم متوفرة لأتوا بمثله ،
قيل له : إنما كان يجب ذلك ، لو أمكنهم مثله فى قدر فصاحته .
فإن قال : لا بد من أن يمكنهم ذلك ، لأن طريقة الكلام لا تختلف ،
قيل له : فهذا يوجب أن تعتمد فى قولك بالصرفة ، على أن لا مزية للقرآن ، وتعتمد فى أن لا مزية فيه ، على قولك بالصرفة .
فإن قال : إذا جاز ما قلته ، كجواز ما قلتموه ، فمن أين لكم أنهم عدلوا والدواعى إلى المعارضة قائمة ؟

قيل له : لأن هذه الطريقة تقتضيها حالهم ، التى كانوا عليها . فلم ندع نحن إلا الأمر المعقول من العادة ، وأنت ادعيت الخروج عن العادة ، بقولك : إنهم صُرفوا عن الدواعى إلى المعارضة ؛ وهذا مما لا بد فيه من دليل^(١) .

٩ - وقال القاضى عبد الجبار : الحال فى الكلام أن يتفاضل ، وجعل الجميع جنسا واحدا ، وطريقة واحدة ، دون إجازة تعذر بعضه دون بعض على الفصحاء ، فاسد . والدليل على ذلك اعتراف الكفار بعظم شأن القرآن . فلو لم يكن للقرآن مزية فى رتبة الفصاحة ، لما كان معجزا ، لأنه من جنس ما يقدرون عليه ، وتمكنهم مساواته^(٢) .
وذهب الجرجانى إلى أنه من المحال أن يعظم العرب القرآن ، فيقولوا إن عليه لطلاوة ، وإن له الحلاوة .. وأن يبهتوا عند سماعه ، ويستكينوا له ، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه ، ويعلمون أنه لم يتعذر عليهم لأنهم لا يستطيعون مثله ، ولكن وجدوا فى أنفسهم شبه الآفة والعارض ، يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلا عليه^(٣) .
وأضاف الفخر الرازى إلى ذلك : بل كان يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم ، بعد أن كان مقدورا عليه لهم . كما أن نبيا لو قال : معجزتى أن أضع يدي على

(٢) المغنى ١٦ / ٣٢٢ ، ٣٢٥ .

(١) المغنى ١٦ / ٣٢٣ - ٤ .

(٣) الشافية ١٣٨ . دلائل ٦١٩ . العلوى ٣ / ٣٩٤ . الإتيان ٢ / ١٣٨ عن المراكشى . بدوى ٤٩ . الحمصى ٨٨ ، ١٥٨ . البوطى ١٥٢ . الخطيب ٣٦٥ . أبو زهرة ٨٠ . لاشين ٤٨٣ . عبد القادر ٦٧ . عتر ٢٠٨ ، ٢١٥ . البدرى ١٥٥ .

رأسى هذه الساعة ، ويكون ذلك متعذرا عليكم ، ويكون الأمر كما زعم ؛ لم يكن تعجب القوم من وضعه يده على رأسه ، بل من تعذر ذلك عليهم . ولما علمنا أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها ، بطل ما قاله النظام^(١) .

١٠ - وقال القاضى عبد الجبار : إن الذى ذكره من صرف الدواعى والهمم يقتضى خروج الكفار عن العقل . لأنه لا يخلو الأمر لو انصرفت دواعيهم :
- من أن يكونوا كذلك مع علمهم بأنهم يقدرون على مثله ،
- أو من أن يكونوا كذلك مع فقد هذا العلم .

ولا يجوز - مع كمال عقولهم - أن لا يعرفوا ذلك . فإذا كانوا عالمين بذلك ، فدواعى المعارضة إذن قائمة . لأن العلم بقدرته ، مع التفرغ ، ومع الحرص على إبطال أمر النبى ، هى الدواعى إلى المعارضة . وهذا يوجب التناقض بأن يقال مع ثبات الداعى : لا داعى لهم ، ومع وجود الاهتمام : صرفت هممهم . وهذا يوجب أحد أمرين :
- إما تناقض الدواعى .

- وإما إخراجهم من حد كمال العقل^(٢) .

وعبر الفخر الرازى عن هذا الرد بقوله : إن نسيان الصيغ المعلومة فى مدة يسيرة يدل على زوال العقل . ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدى . فبطل ما قاله النظام^(٣) .

١١ - وقال القاضى عبد الجبار : فإن قال الممارى : لولا أن الصرف هو الذى لأجله عدلوا عن المعارضة ، لكان لا يجب أن يجرى أمره على حد واحد ، مع أن فيهم المقدم ، الذى يعلم تعذر المعارضة ، وفيهم من لا يعلم .
قيل له : إن فيهم من جاء بمعارضة ركيكة . ومن لم يأت فلأنه علم من حالها ما وصفناه ، أو كان فى حكم العارف ، أو تابعا للعارف . فلذلك اتفقوا على العدول عن المعارضة . وهذا يبين من حال الجمع العظيم .

(١) نهاية ٥ - ٦ . ابن النقيب ٥٢٠ . الحمصى ١٠٠ . العمارى ٧ . وليد ٣١٨ .

(٢) المغنى ١٦ / ٣٢٥ ، ٣١٤ .

(٣) نهاية ٦ . ابن النقيب ٥٢٠ . العلوى ٣ / ٣٩٤ - ٥ . الحمصى ١٠٠ . وليد ٣١٨ .

فلما رأى الأتباع الأكابر ضاق ذرعهم بالقرآن ، وعدلوا عن المعارضة إلى الأمور الشاقة ، تبعوهم فى هذه الطريقة ، لعلمهم بأنهم عن ذلك أشد عجزا . فلذلك استمرت أحوالهم على هذا الوجه ، لا للصرفة التى ظنوها .

ولولا أنهم علموا أن القرآن فى أعلى رتبة من الفصاحة ، الجامعة لشرف اللفظ وحسن المعنى ، حتى بهرهم ذلك ؛ لجاز أن يختلفوا فى المعارضة . فىكون فيهم من يكفّ، وفيهم من يحاول ، وفيهم من يأتى بما يزداد علمهم بعظم شأن القرآن عنده تأكيدا^(١) .

١٢ - ورد القاضى عبد الجبار على من أجاز صرف الله العرب عن المعارضة وانصرفهم بأنفسهم جميعا مدعيا عدم التنافى بينهما فى النتيجة ، قائلا : إنهما - وإن لم يتنافيا على هذا الوجه - يتنافيان فى كون المخالف يزعم أنهم عدلوا عن المعارضة - مع إمكانها - بسبب الصرفة ، ونحن نقول : عدلوا لتعذرهما ، وعلمهم بذلك من حالها^(٢) .

١٣ - ذكر عبد القاهر الجرجاني أنه يلزم على القول بالصرفة أن تكون العرب قد تراجعت فى البلاغة والبيان ، وأن يكونوا قد نقصوا فى قرائحهم وأذهانهم . وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، من بعد أن أوحى إلى النبى ﷺ وتحدوا إلى معارضة القرآن^(٣) .

فإن قالوا : إنه نقصان حدث فى فصاحتهم من غير أن يشعروا به .

قيل لهم : إن كان الأمر كذلك فلم تقم عليهم حجة ، لأنه لا فرق بين :

- أن لا يكونوا قد عدموا شيئا من الفصاحة التى كانوا يعرفونها لأنفسهم قبل التحدى

بالقرآن .

- وبين أن يكونوا قد عدموا ذلك ثم لم يعلموا أنهم قد عدموه .

وذلك لأن الآية - بزعمهم - إنما كانت فى المنع من نظم قد كان لهم ممكنا قبل

التحدى . ولا يكون منع حتى يُرام الممنوع ، ولا يتصور أن يروم الإنسان الشيء ولا

(١) المغنى ١٦ / ٣٢٧ . ابن تيمية ٤ / ٧٦ . البوطى ١٥١ - ٢ . الخطيب ٣٦٩ - ٧٢ . عتر ٢١١ .

(٢) المغنى ١٦ / ٣٢٤ . منير ٢٠٣ - ٤ . قصاب ٣٢١ .

(٣) الشافية ١٣٣ . دلائل ٦١١ . ابن تيمية ٤ / ٧٧ . الزرقانى ٢ / ٣١٤ - ٥ . الصابونى ١٤٣ .

عبد القادر ١٥٤ . عتر ٢١٠ . منير ١٢٩ . أبو على ١٣١ .

يعلمه ، ويقصد - فى قول له أو فعل - إلى أن يجيء به على وصف - وهو لا يعرف ذلك الوصف ، ولا يتصوره بحال من الأحوال^(١) :

وإذا جعلناهم لا يعلمون أن كلامهم الذى يتكلمون به اليوم قاصر عن الذى تكلموا به أمس ، وأن قد امتنع عليهم فى النظم شىء كان يواتيهم ، استحال أن يعلموا أن لنظم القرآن فضلا على كلامهم الذى يستمع منهم ، وعلى النظم الزاهر الباقى لهم ، لأنهم ما زالوا يعتقدون أن كلامهم باق على ما كان عليه فى القديم ، لم ينقص ولم يدخله خلل^(٢) .

وإذا لم يتصور أن يعلموا أن للقرآن مزية على ما يقولونه ، لم يتصور أن يحاولوا تلك المزية . وإذا لم يحاولوها ، لم يحسوا بالمنع عن نيلها . وإذا لم يحسوا بالمنع ، لم تقم عليهم حجة به^(٣) .

والذى يعقل فى هذه الحال أن يعتقدوا أنهم قد عارضوا القرآن ، وتكلموا بما يوازيه^(٤)

ويلزم أن تكون أشعار شعراء النبى ﷺ التى قالوها فى مدحه وفى الرد على المشركين، ناقصة متقاصرة عن شعرهم فى الجاهلية ؛ وأن يُشك فيما روى عن قوله ﷺ لحسان : « قل وروح القدس معك » لأنه لا يكون مُعانا من عند الله ، وهو يعدم مما كان يجده من قبل كثيرا^(٥) .

ويلزمهم أن يقضوا فى النبى ﷺ بما قضوا فى العرب ، من دخول النقص على فصاحتهم، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يُمنع شطرا من بيانه . ذاك لأنهم - إذا لم يقولوا ذلك - حصل منه أن يكون ﷺ قد تلا عليهم سورة التحدى ، فى حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن . اللهم إلا أن يقتحموا جهالة أخرى ، فيزعموا أنه قد كان فى الأصل دونهم فى الفصاحة . وإذا قالوا ذلك كانوا قد خرجوا من قبيح القول إلى

(١) الشافية ١٣٣ - ٤ . دلائل ٦١٢ . أبو على ١٣٢ .

(٢) الشافية ١٣٤ . دلائل ٦١٢ . البدرى ١٥٤ . أبو على ١٣٢ .

(٣) الشافية ١٣٤ . دلائل ٦١٣ .

(٤) الشافية ١٣٤ . دلائل ٦١٣ . أبو على ١٣٢ .

(٥) الشافية ١٣٣ . دلائل ٦١١ - ٢ . عتر ٢١٠ . منير ١٢٩ . أبو على ١٣١ .

مثله . فلم يشك أحد أنه ﷺ لم يكن منقوصا فى الفصاحة ، بل الذى أتت به الأخبار أنه كان أفصح العرب^(١) .

وأضاف الفخر الرازى أنه يلزم عن ذلك أن يكون الفرق بين كلامهم بعد التحدى وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدى والقرآن . ولما لم يكن كذلك بطلت الصرفة^(٢) .

ورد ابن تيمية (٧٢٨ / ١٣٢٨) بأن العرب عرفوا أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماع القرآن وبعد سماعه ، ولا وجدوا أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا - عليه السلام - عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه^(٣) .

١٤ - وقال عبد القاهر الجرجانى : لو أن العرب كانوا قد مُنعوا منزلة من الفصاحة كانوا عليها ، لكان ينبغى أن يعرفوا ذلك من أنفسهم . ولو عرفوه لذكروه ، واتهموا النبى بأنه قد سحرهم ، كما نسبوه إلى السحر فى كثير من الأمور . وإذ لم يُرو أنه كان منهم قول فى هذا المعنى ، كان ذلك دليلا على أنه قول فاسد^(٤) .

وقال الزملكانى : هذا خُلفٌ من القول ، إذ لو كان كذلك ، لكان ينبغى أن يتعجبوا من حالهم دونه . فإن من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين - بحسب الله أيديهم - لا يُعجب منه بل من حاله^(٥) .

وقال العلوى اليمنى : لو كانوا صُرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم . ولو علموا ذلك ، لوجب أن يتذكروا فى حال هذا المعجز على جهة التعجب . ولو تذكروه ، لظهر وانتشر على حد التواتر . فلما لم يكن ذلك ، دل على بطلان مذهبهم^(٦) .

١٥ - وقال عبد القاهر : من حق المنع - إذا جعل آية وبرهانا ولا سيما للنبوة - أن يكون فى أظهر الأمور ، وأكثرها وجودا وأسهلها على الناس ، وأخلقها بأن تبين لكل

(١) الشافية ١٣٤ - ٥ . دلائل ٦١٣ - ٤ . عتر ٢١٠ .

(٢) نهاية ٦ . قصاب ٣١٨ . (٣) الجواب ٧٧ .

(٤) الشافية ١٣٥ ، ١٣٨ - ٩ . دلائل ٦١٤ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ . الإيجى ٣٥٢ . الشريف الجرجانى ٨

/ ٢٤٩ . عتر ٢١٤ . منير ١٢٥ . البدرى ١٥٤ .

(٥) البرهان ٥٣ . الزرقانى ٢ / ٣١٠ ، ٣١٤ . النبأ ٨١ . الصابونى ١٤٣ . الخطيب ٣٦٦ .

(٦) الطراز ٣ / ٣٩٢ . الألوسى ١ / ٢٨ .

راءٍ وسامع أن قد كان منعٌ ، لا أن يكون المنع من خفى لا يُعرف إلا بالنظر وبعد الفكر، ومن شيء لم يوجد قط ولم يُعهد ، وإنما يُظن أنه يجوز أن يكون^(١) .

١٦ - وأخيرا جادل الجرجاني أصحاب الصرفة جدالا عقليا فقال : ينبغي أن يقال لهم: ما هذا الذى أخذتم به أنفسكم ؟ وما هذا التأويل المنكر فى عجز العرب عن معارضة القرآن ؟ وما دعاكم إليه ؟ وما أردتم منه ؟ أن يكون لكم قولٌ يحكى ، وتكونوا أمة على حدة ، أم قد أتاكم فى هذا الباب علم لم يأت الناس ؟

فإن قالوا : أتانا فيه علم ؟

قيل : أفمن نظرت ذلك العلم أم خير ؟

فإن قالوا : من نظر .

قيل لهم : فكأنكم تعنون أنكم نظرتم فى نظم القرآن ونظم كلام العرب ، ووازنتم فوجدتموه لا يزيد إلا بالقدر الذى لو خلُّوا والاجتهاد وإعمال الفكر ، ولم تفرق عنهم خواطرهم عند القصد إليه ، لآتوا بمثله .

فإن قالوا : كذلك نقول .

قيل لهم : فأنتم تدعون الآن أن نظركم فى الفصاحة نظر لا يغيب عنه شيء من أمرها ، وأنكم قد أحطتم علما بأسرارها ، وأصبحتم ولكم فيها فهم وعلم لم يكن للناس قبلكم .

وإن قالوا : عرفنا ذلك بخير .

قيل : فهاتوا عرفونا ذلك .

وأنى لهم تعريف ما لم يكن ، وتثبيت ما لم يوجد^(٢) .

١٧ - من الغريب أن يزعم بعض أصحاب الصرفة أنها كانت صرفا لدواعى المعارضة . فقد عنى الكاتبون عن الإعجاز - منذ أولهم إلى آخرهم - بالحديث عن توفر الدواعى المتعددة والمتنوعة . وأفاض فى ذلك إفاضة بعيدة المدى القاضى عبد الجبار .

(١) الشافية ١٤٠ . دلائل ٦٢١ . العمارى ٧ .

(٢) الشافية ١٤١ . دلائل ٦٢٣ . أبو على ١٣٥ .

وقد اتخذ الحاكم الجشمي من هذه الظاهرة سندا لإبطال القول بالصرفة^(١) .
١٨ - قال محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١ / ١٢٧٣) : القول بالصرفة فاسد لأن
إجماع الأمة - قبل حدوث المخالف - أن القرآن هو المعجز^(٢) .
١٩ - قال الزركشى : لو كان الإعجاز بالصرفة ، لكان المعجز هو الله ، حيث سلبهم
قدرتهم عن الإتيان بمثله^(٣) . يريد أن القرآن - في هذه الحالة - لا يكون معجزا .
٢٠ - وقال الزركشى أيضا : يلزم من القول بالصرفة فساد ، هو زوال الإعجاز بزوال
زمان التحدى ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة القرآن
أبدا^(٤) .

ولعله استفاد هذا الرد من رواية ياقوت أن القول بالصرفة حمل جماعة من الأدباء ،
على الاعتقاد بأنها مقصورة على زمن التحدى ، فدفعهم هذا إلى النظم على أسلوب
القرآن^(٥) .

وهكذا قال عبد الحسيب طه حميدة : لو كان كذلك ، لزال الصرفة بزوال زمن
التحدى وانتشار الإسلام ، ولأصبح فى مكنة العلماء والبلغاء أن يقولوا مثله ، لخلوه فى
ذاته من صفة الإعجاز ، وعدم الحاجة - بعد موت النبى واستقرار الدين - إلى صرف
الناس عن الإتيان بمثل هذا القرآن^(٦) .

ورفض عمر الملاحويش هذا الرد ، وأعلن أنه يعتقد أنه ليس فيه ما يبطل القول
بالصرفة . وذلك لأن آيات التحدى فى سورة الإسراء وغيرها ، لم تقتزن بزمن معين ،
كما لم تختص بجماعة دون أخرى ، ولا بجيل معين . وإنما جاءت مطلقة ، والمطلق يؤخذ
على إطلاقه . فما دام القرآن يتلى ، وما دام هناك تحد ، فالعجز عن الإتيان بمثله
حاصل^(٧) .

(١) ٤١٦ . (٢) الجامع ١ / ٧٥ . الإيجي ٣٥٢ . الزركشى ٢ / ٩٤ . الشريف
الجرجاني ٨ / ٢٤٩ . الإتيان ٢ / ١٢٧ . الألوسى ١ / ٢٨ . الخطيب ٣٦٤ . الملا ٢٥٠ . الصباغ
٦٣ . عبد القادر ٦٧ . عتر ٢١١ . قمحاوى ٢٦ . عطا ٢٤٠ . زرزور ١٩٩ .
(٣) البرهان ٢ / ٩٤ . الإتيان ٢ / ١٣٧ . القطان ٢٦١ . الملا ٢٥٠ - ١ . عبد القادر ٦٧ . قمحاوى
٢٦ . البدرى ١٥٣ . (٤) البرهان ٢ / ٩٤ . الإتيان ٢ / ١٣٧ . الملا ٢٥١ - ٢ .
الصباغ ٦٣ . عطا ٢٤٠ . زرزور ١٩٩ . كفاى ١٣٩ - ٤٠ .
(٥) معجم ٣ / ١٤٠ . (٦) مع القرآن ٣٥ . (٧) تطور ٢٥٢ .

٢١ - قال الآلوسى : وقع التحدى بالقرآن على كل العرب . فلو كان الإعجاز بالصرفه ، لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد - ضرورة - تحقق الصرفه بالنسبة إليه . فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له . والمعتاد لكل ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه . فيلزم أن يكون القرآن كذلك ، وليس الأمر كذلك^(١) .

٢٢ - ذهب مصطفى صادق الرافعى إلى أن مذهب النظام فى الصرفه دون قدره ، بل دون علمه ، بل دون لسانه . وهو - عندنا - رأى لو قال به صبية المكاتب - وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه - لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم فى بعض ما يحاولونه ، إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ، ليوهموا أنهم قد عرفوا^(٢) .

٢٣ - وقال الرافعى أيضا : لا يختلف القول بالصرفه عن قول العرب فيه : ﴿ إن هو إلا سحر يؤثر ﴾^(٣) . وهذا زعم رده الله على أهله ، وأكذبهم فيه ، وجعل القول به ضرباً من العمى : ﴿ أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾^(٤) فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشئ الواحد^(٥) .

وأبان محمد أبو زهرة وجه الشبه بين القول بالصرفه والاتهام بالسحر ، فذكر أن الامتناع عن المماثلة فى كليهما من خارج الشئ لا من ذاته^(٦) .

٢٥ - أورد د . البوطى رأى رد إعجاز القرآن إلى صفات ذاتية فيه ورأى من رده إلى الصرفه ، ثم عقب قائلاً : وأنت - إذا تأملت فى كلا القولين ، وفيما هو أقرب إلى العقل والفهم منهما - أدركت أن تعريف النظام ومن شايعه لا معتمد من المنطق أو العقل له . وقد سخر كثير من الباحثين - ومنهم الجاحظ - بهذا التفسير للإعجاز^(٧) .

وتابعه د . عتر فوصف هذا المذهب بأنه زعم لا دليل عليه من العقل أو النقل^(٨) .

٢٤ - ذهب محمد الزفزاف إلى أن القول بالصرفه طريقاً للإعجاز قول من يريد محاجة مجادليه بأقرب طريق^(٩) .

(١) روح ١ / ٢٨ . (٢) إعجاز ١٦٣ . العمارى ٥٥ . البدرى ١٤٠ .
(٣) سورة المدثر ٢٤ . (٤) سورة الطور ١٥ . (٥) إعجاز ١٦٤ . العمارى
٥٥ ، ٦٠ . الصابونى ٩٩ . خلف الله ٢٤٢ . البدرى ١٤٠ . الزفزاف ١٣١ .
(٦) المعجزة ٥١ ، ٨١ . خلف الله ٢٤٢ . (٧) التعريف ١٣١ .
(٨) من روائع ١٥٠ . (٩) بينات ٢١٦ .

٢٥ - قال محمد على الصابوني : لو صح القول بالصرفة ، لكان ذلك (تعجيزا) لا (إعجازا) لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام^(١) .

٢٦ - وقال الصابوني : لو كان هناك صارف زهدهم في المعارضة من كسل أو ملل ، لما وقفوا في وجه نبي الإسلام ، ولما آذوه وأصحابه ... إلى غير ما هنالك من دوافع جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام^(٢) .

٢٧ - قال عبد القادر أحمد عطا : إن كان صرف الله عباده عن معارضته أمرا مقررا في الإسلام ، فلم لم يصرف العلماء عن معارضة خلقه في العصر الحاضر ؟ ألا تراهم في معاملهم راحوا يتحدثون عن الإنسان الآلى ، وعن بناء الأجنّة في غير أرحام الأمهات ، وعن الأمطار الصناعية ، ولم يُصب الله عالما منهم بالجنون ولا بالمغس الكلوى ، كلما توجه إلى معمله ليصنع خلقا كخلق الله^(٣) .

واعتمد د. حسن ضياء الدين عتر على أقوال الجرجاني ، وأضاف إلى الآية الآية ٢٣ من سورة البقرة ، ثم أعلن أن هذه الآية ونظائرها في القرآن تدل على أنه معجز بنفسه لمزايا وخصائص استقرت فيه ، تقصّر طاقة البشر وقدرتهم على مضاهاتها^(٤) .

* * *

وتبين لنا هذه الجولة أن هذا الرد تردد على السنة معظم من عارضوا الصرفة ، وأن تفسير الزركشى هو الذى كان له الغلبة ، وأن عبد القادر أحمد عطا ود. عدنان زرزور نسباه خطأ إلى السيوطى الذى كان قد اقتبسه منه دون عزو ، وأن عمر الملاحويش انفرد بعدم اعتبار الآية . وتجاهل الملا توضيح الخطأ بين الآيه والقول بالصرفة ، فاتهمه بأنه لم يفعل ذلك .

(٢) التبيان ١٤٢ - ٣ .

(٤) بينات ٢٠٧ .

(١) التبيان ١٤٢ . الشاعر ١٠١ .

(٣) أسرار التكرار للكرمانى ٢٤١ .

الفصل الثالث

تعليل القول بالصرفة

لما كان مذهب الصرفة - وبخاصة عند النظام - فيه ما يصدم جمهور المسلمين ، فقد حاول بعض الباحثين أن يفسروه ، ويكشفوا عن العوامل التي دفعت إلى اعتناقه .

نقل د. علي العماري أن أبا بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ / ١٠٠٢ - ١٠٧٢) ذكر في كتابه « أصول الدين » : « أن النظام أعجب بقول البراهمة في إبطال النبوات . ولكنه خاف السيف فلم يجسر على إظهار ذلك . فأنكر إعجاز القرآن في نظمه ، وأنكر معجزات النبي من نحو انشقاق القمر ، ليتوصل بذلك إلى إنكار النبوة^(١) » .

وقد كشف أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٤٠ / ٩٧٣ - ١٠٤٨) عن رأى البراهمة فذكر أن الهنود يعتقدون أن كتابهم الذي سماه « بيذ » معجز . قال : ليس « بيذ » على النظم السائر بل هو بنظم غيره . فمنهم من يقول : إنه معجز ، لا يقدر أحد منهم أن ينظم مثله . والمحصّلون منهم يزعمون أن ذلك فى مقدورهم لكنهم ممنوعون عنه احتراماً له^(٢) .

وعقب محمد أبو زهرة على هذا القول قائلاً : لم يبين البيروني وجه المنع : أهو منع تكليفي يسبقه الإيمان بهذه الكتب ، وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواح أخرى ، أم هو منع تكويني . بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها ؟ والأخير هو الظاهر ، لأنه هو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم ، وما اشتهر من أن القول بالصرفة نبع فى واديه^(٣) .

(١) حول ٦١ - ٢ .

(٢) تحقيق ٨٩ . أبو زهرة ٧٦ . وانظر خليل ١٥٠ - ١ ، أبو موسى ٣٥٨ .

(٣) المعجزة ٧٦ . أبو موسى ٣٥٨ .

ورأى أن رأى البراهمة فى كتابهم الذى نعرفه نحن الآن باسم « الفيدا » هو السبب وراء قول بعض المفكرين المسلمين بالصرفة . فقد ذهب إلى أن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة فى كتابهم الفيدا ، وهو الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار ، ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم ، ويقول جمهور علمائهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها ، لأن « براهما » صرفهم عن أن يأتوا بمثلها .

وعندما دخلت الأفكار الهندية - فى عهد أبى جعفر المنصور ومن والاه من حكام بنى العباس - تلقفها الذين يحبون كل وافد من الأفكار ، ويركنون إلى الاستغراب فى أقوالهم ، فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول ، ويطبقوه على القرآن ، وإن كان لا ينطبق . فقال قائلهم : إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه ، بل كان لأن الله صرفهم عن أن يأتوا بمثله^(١) .

ورفض د. أبو موسى تعقيب أبى زهرة . لأن عبارة (خاصة البراهمة) - فى رأيه - ليس فيها هذا الوجه الذى يعنى الصرف ، وليس فيها ما يقرب منه . وإنما هى صريحة من أنهم لم يقولوا مثل أشعار الفيدا احتراماً لها . وهذا غير ما نحن فيه ، لأن الصرفة - عند علمائنا - تعنى أمراً إلهياً . ثم إن كلام البراهمة فى الفيدا كان محل سخرية العقل الإسلامى . وقد كانوا يذكرونه مثلاً للتسليم بعدم الحجة ، ومثلاً للمذهب الذى لا مستنصر له ، لأن الذين قالوا به لا حجة لهم . وكتاب الفيدا مثل كتاب زرادشت ومانى ، فيها - عند علمائنا - حكم وتهوس ، فكيف يستمدون منها وجهاً لبيان الحجة فى القرآن ؟

ولو كان الأمر ما ذهب إليه الشيخ الفاضل أبو زهرة ما سكت عنه الجاحظ ولا غيره . ثم إن النظام أحكم من أن يواجهه فى حومة جدال مستعر بكلام البراهمة الهش والذى يعرفه أهل زمانه ، ويعرفون قدره^(٢) .

وأعلن أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى (٤٧١ / ١٠٧٨) أن الذى يقع فى الظن أن يكون الذى ابتداء القول بالصرفة ، ابتدأه على توهم أن التحدى كان إلى أن يعبر عن أنفس معانى القرآن بمثل لفظه ونظمه ، دون أن يكون قد أطلق لهم وخيروا فى

(٢) الإعجاز ٣٥٨ - ٩ .

(١) المعجزة ٧٦ . وانظر عباس ١١ ، ١٦ .

المعاني كلها . ذاك لأن في القول بها - على غير هذا الوجه - أموراً شنيعة ، يبعد أن يرتكبها العاقل^(١) .

وقال العلوي اليمنى : الذى غر هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة ما يرون من الكلمات الرشيقة ، والبلاغات الحسنة ، والفصاحات المستحسنة ، الجامعة لكل الأساليب البلاغية ، فى كلام العرب ، الموافقة لما فى القرآن . فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ما ذكرنا من تلك الأساليب البديعة لا يقصر عن معارضته ، خلا ما عرض من منع الله إياهم^(٢) .

وقال محمد رشيد رضا : هذا رأى كسول ، أحب أن يريح نفسه من عناء البحث وإحالة قدح الفكر فى هذا الأمر^(٣) .

وتابعه د. عدنان زرور فقال : القول بالصرفة من باب التفلسف الذى يريد صاحبه إراحة نفسه من عناء البحث وإحالة الفكر^(٤) .

ومال د. محمد زغلول سلام إلى أن هذا المذهب صادر عن عقيدتين فى نفس النظام : الأولى : عقيدته فى التوحيد والعدل على مذهب المعتزلة ، ونفى صفات الله عن ذاته . ومن ثم فلا كلام لله فى الشكل اللفظى المعهود من الخلق ، وإنما كلام الله وحى وإلقاء فى الرؤى .

الثانية : مذهبه القياسى التجريبي الطبيعى فى التفكير ، وتزمت فى تطبيقه على القرآن وبيانه^(٥) .

وتابعه د. منير سلطان ، فمال إلى أن مذهب الصرفة نابع من مبدأ العدل الإلهي عند المعتزلة . وفحواه أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ولكنه لا يقدر على ما لا يخطر بباله ، أى أن قدرة الإنسان مقيدة بعلمه . فالإنسان - عند النظام - يعلم الشئ ، ثم تريده نفسه ، ثم تقوم قدرته بتنفيذه . ودفعه ذلك إلى أن يتصور الصرفة - عند النظام - انصرافاً اختيارياً أكثر منها صرفة جبرية ، ورجوعاً بعد شعور بالعجز أكثر منها تحويلاً للعجز إلى إعجاز^(٦) .

(١) الشافية ١٣٣ . دلائل ٦١١ .

(٢) الطراز ٣ / ٣٩٢ . وانظر الحمصى ٢٤

(٣) تفسير المنار ١ / ١٩٨ . شبهات ٩٧ . البدرى ١٣٩ . الزفراف ١٣١ .

(٤) القرآن ١٩٨ .

(٥) أثر القرآن ٧١ . أبو زيد ٢٦٤ .

(٦) إعجاز ٥٢ . أبو زيد ٢٦٤ .

وقال د. محمد عبد الله دراز عن مذهب الصرفة : وهو - وإن كان اعترافا فى الجملة بصحة الإعجاز - إلا أنه لا يقول به إلا أعجمى أو شبهه ممن لم يذق للبلاغة طعاماً^(١) .
وتابعه محمد على الصابونى فقال : ولعمري هذا قول من لم يتذوق طعم العربية ولا
غرف أسرارها ، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشورا لا تسمن ولا تغنى من
جوع^(٢) .

ونسب عبد الحسيب طه حميدة إلى بعض من ذهب إلى الصرفة الزعم بأن عجز القادر
أقوى دلالة على التأيد لمحمد ﷺ من عجز الضعيف^(٣) .

وقال البوطى : إن تفسير إعجاز القرآن - كما يراه النظام - هو فى الحقيقة أقعد فى
باب الإعجاز ، وأدعى إلى معرفة أنه من كلام الله ، إذ العجز عن الإتيان بالشئ
المستطاع أعجب من العجز عن الإتيان بالأمر الرفيع الذى لا يدرك ولا يستطاع^(٤) .

ورأى عبد القادر أحمد عطا مذهب الصرفة نابعا من الفكر اليهودى ، لأن معناه
الازتداد إلى الفكر السائد فى سفر التكوين ، الذى يصف الله - سبحانه - بالبذاء .
ويقول: أو ليس هذا القول وثيق النسب بهذا الفكر اليهودى المشبوه ؟ أو ليس التحدى
ثم الصرفة على هذه الصورة عبارة عن ضرب من ضروب الخداع والهروب من الحقيقة ،
جلّ الله عن مثله^(٥) .

وعاب أحمد أبو زيد تصور د. منير سلطان للصرفة عند النظام . ورجح أنه لم يلتفت
إلى مانسه الأشعرى إلى النظام من إحداث الله منعا وعجزا فى العرب . ولو كان رأى
النظام كما تصوره د. منير لما أنكر إعجاز القرآن بالنظم ، ولما كان لرد الجاحظ وابن
الخطايط عليه معنى .

وذهب أبو زيد إلى أنه ليس ببعيد أن تكون نظرية الصرفة قد تكونت فى غمار المعركة
التي واجه فيها المعتزلة أصنافا من الخصوم ، وكان النظام من فرسانها . فقد رأى العلماء
- على اختلاف اتجاهاتهم - يعتمدون على كلام العرب وشعرهم ، فى تفسير القرآن
والاستشهاد على بلاغته . فخشى أن يقول أحد الخصوم : كيف تستشهدون بكلام

(١) النبأ ٧٨ . الصباغ ٦٢ . (٢) التبيان ٩٩ . (٣) مع القرآن ٣٥ .
(٤) من روائع ١٥٢ . (٥) أسرار التكرار - الدراسة ٢٣٩ - ٤٠ .

العرب على بلاغة القرآن ، ثم تقولون : إنهم عاجزون عن مثله ؟ ولما كان النظام يميل فى تفكيره إلى المنهج القياسى التجريبي الواقعى ، وكان قد عاش فى وقت لم تكن البلاغة القرآنية قد عُرفت فيه ، بالقدر الذى يجعل المفكر الواقعى قادرا على الدفاع عن إعجاز القرآن فى النظم ، بحجج واقعية ، توضح للخصوم - فى جلاء - الفرق بين النظم القرآنى وكلام العرب الفصحاء ؛ لما كان الأمر كذلك تبنى النظام نظرية الصرفة . واستدل على ذلك بلجوء الجاحظ إليها فى معرض رده على الدهرية^(١) .

أثر الصرفة

كان أبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن سنان الخفاجى (٤٢٣ - ٤٦٦ / ١٠٣٢ - ١٠٧٣) أول من فطن إلى صدى مذهب الصرفة فى الحياة الثقافية عند العرب . ذكر ياقوت أنه قال فى تضايف كتاب له ألفه فى الصرفة : حمل هذا القول جماعة من الأدباء على أن يصوغوا على أسلوب القرآن . وأظهر ذلك قوم ، وأخفاه آخرون^(٢) . أما مصطفى صادق الرافعى فرأى له آثارا مدمرة . فلولاه لكان لنا اليوم كتب ممتعة فى بلاغة القرآن وأسلوبه وإعجازه اللغوى وما إلى ذلك^(٣) .

واتجه إلى النقيض منه محمد أبو زهرة ، الذى أعلن أن هذا المذهب أدى إلى إنشاء علوم البلاغة فى ظل القرآن . إذ اتجه الكاتبون - للرد عليه - إلى بيان أسرار البلاغة فى هذا الكتاب الممين . فكان هذا الباطل سببا فى خير كثير^(٤) .

ونمت نحوه د . عائشة عبد الرحمن التى صرحت أن هذا المذهب أوقع فى شبهة أن إعجازه البلاغى غير معتبر . وذلك ما التفت إليه أعلام المعتزلة أنفسهم وخشوه . فتجردوا للاحتجاج له ، وجهدوا فى تقريره^(٥) .

وذهب د . وليد قصاب إلى نقيض ما ذهب إليه ابن سنان . فصرح بأن هذا المذهب كان فيه هدم لأمل كل من تحدته نفسه بمعارضة القرآن ، لأنه ممنوع من ذلك بقدره

(١) المنحى ٢٦٥ - ٦ .

(٢) معجم الأدباء ٣ / ١٣٩ - ٤٠ . وأعتقد أن تحريفا ألم به . العمارى ٤٧ ، ٧٤ .

(٣) إعجاز ١٦٣ - ٤ . العمارى ٥٦ - ٧ .

(٤) المعجزة ٨٢ . الدبل ٣٠ . وانظر العمارى ٥٦ . (٥) الإعجاز ٧٣ .

إلاهية، لا يستطيع أن يتخطاها أو يتغلب عليها . فبقى القرآن المعجزة الأبدية الخالدة ،
التي لا يمكن أن ينجح أحد في معارضتها^(١) .

الصرافة والمذاهب

وتبرز ظاهرة واضحة في الحديث عن الصرافة . فإلى جانب الرجال الذين نسبت
الاتجاهات المختلفة لها إليهم صراحة ، نجد كثيرا من الكتاب ينسبونها إلى فئات معينة ، مما
قد يوحي بأنها عامة فيها ، وإن كان بعضهم اتخذ شيئا من الاحتياط .
فنسبها القرطبي إلى بعض القدرية^(٢) . ووضع ابن كثير أهل السنة في مقابل المعتزلة ،
وجعل الأولين يقولون بأن القرآن معجز في ذاته ، والآخريين يقولون بالصرافة^(٣) . ونسب
الصابوني الصرافة إلى بعض المعتزلة وبعض الشيعة^(٤) ، والبدرى إلى كثيرين من أئمة
المعتزلة والشيعة^(٥) ، والشاعر - بل كثير من الكتاب - إلى المعتزلة وحدهم^(٦) .
والحق إن هذه الأقوال جميعها فيها شيء من البعد عن الصواب . فلم يعتنق الصرافة
كل المعتزلة ، ولا كل الشيعة ، ولا كل الإمامية منهم . ولا اقتصر تغلغلها على هاتين
الفرقتين ، بل تسربت إلى أكثر من رجل من الأشعرية من السنة .
وأعتقد أن ما أوردته في المقدمة من حديث العمارة يصور مشاعر جماعة المسلمين
تصويرا دقيقا . صرح أنه منذ بدأ يقرأ في كتب الكلام ، وهو يعجب أشد العجب أن
يقول عالم من علماء المسلمين هذه المقالة في القرآن الكريم . وكان - بادئ الأمر - يظن
أن أحدا من الأشاعرة لا يقول بهذا المذهب ، وإنما هو رأى اعتزالي . وذكر ما كان يلقنه
من بعض شيوخه في عهد الطلب ، من أن القائلين به كفار^(٧) .

(٢) الجامع ١ / ٧٥ .

(٤) التبيان ١٤٢ .

(٧) حول ٥٤ .

(١) التراث ٤٧ .

(٣) التفسير ١ / ٦١ . عائشة ٧٨ .

(٦) القرآن ١٠١ .

(٥) حقائق ١٥١ .

الشك فى الصرفة

دفع استنكار جماعة المسلمين للصرفة أو لبعض اتجاهاتها المحدثين من المفكرين إلى الشك فى صحة عزوها إلى من عزيت إليهم .

فقال الزرقانى : أشك كثيرا فى نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء . ويبدو لى أن الطعن فى نسبتها إليهم ، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم ، أقرب إلى العقول ، وأقوى فى الدليل ، لأن ظهور وجوه الإعجاز فى القرآن من ناحية ، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى ، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأى الآثم إليهم ، ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله ، وعلى أصحابه ، وعلى الأئمة والعلماء . فلم لا يكون هذا منه (١) ؟ .

وقال محمد حنيف فقيهى : نحن - مع استبعادنا كل البعد على جماعة المعتزلة ، وعلى النظام نفسه ، أن يكون صاحب هذا المذهب ، نستنكر - والمعتزلة أهل منطق وحكمة وفلسفة ونظر وبحث وتعمق وكشف عن الحقائق - أن ينسب إليهم هذا المذهب ، الذى يدل على التواكل والضعف ، ويكشف عن أفق ضيق ، وتفكير عقيم . ونعتقد - على ضوء ما نفهم فى علماء المعتزلة من ثاقب الرأى وبعد النظر - أنه مدسوس عليهم ، لصيق بهم ، لأنهم قوم كان لهم خصوم يفسون عليهم مكانتهم الفكرية (٢) .

وقصر الدكتور طه الحاجرى الشك على النظام فقال : ليس يبعد عندنا أن يكون رأى النظام فى الصرفة مثل رأى الجاحظ ، وإنما حرّفه خصومه بعدد على النحو الذى رأينا (٣) . ومائله العمارى مع بعض احتراز فقال : لولا أنى رأيت الجاحظ يعرض لهذا المذهب فى كتاب الحيوان ، لكان لى مندوحة فى الشك والتردد الكثير فى نسبة المذهب للنظام (٤) .

(٢) نظرية ١٠٧ .

(٤) حول ٥٩ ، ٦٣ .

(١) مناهل ٢ / ٣١٥ .

(٣) الجاحظ ٣٢٣ .

خاتمة

تكشف لنا هذه الجولة عن تصحيح أخطاء وقع فيها بعض الباحثين الذين درسوا الصرفة أو تحدثوا عنها .

وأولها : نسبتها إلى الشريف الرضى . وقد كان السبب فى الخطأ الخلط غير المقصود بين لقبى الرضى والمرضى .

وثانيها : نسبة الصرفة إلى النظام وحده ، كما جاء فى تعليق عبد الحسيب طه حميدة على قول النظام ، ونصه : « ولا شك أن هذا القول ظاهر الفساد ، واضح البطلان ، لم يقل به غير صاحبه^(١) » .

وثالثها : أننا كما لا نستطيع أن نعزو الصرفة إلى النظام وحده لا نستطيع أن نعزوها إلى واحدة من فرق المسلمين وحدها ، كما زعم بعض الباحثين . قد نقول ذلك عن جيل النظام ومدرسته من المعتزلة . ولكن بعض كبار المعتزلة - مثل القاضى عبد الجبار - كانوا من أكثر العلماء نقدا لهذا المذهب ، وإفاضة فى السعى إلى هدمه . إضافة إلى ذلك آمن به بعض الشيعة كالشريف المرتضى ، وهاجمه آخرون كالطوسى والطبرسى ، وآمن به بعض الأشاعرة كالإسفرائينى والجوينى ، وهاجمه آخرون كالباقلانى . وآمن به ابن حزم من الظاهرية .

ورابعها : أن هذا رأى ليس - من الدوام - من باب الطعن على الكتاب الكريم أو باب الإلحاد فيه والزيغ ، كما ظن ، ولا يزال كثيرون يظنون ؛ بل إن هذا رأى كان - عند بعض أصحابه - أكد فى باب الإيمان والتسليم بأن القرآن كلام الله .

وخامسها : ما وقع فيه الرافعى حين أعلن أن الصرفة عاقت حركة التفكير البلاغى ، والمتفق عليه أنها دفعته إلى بعيد ، عندما ساقى المفكرين إلى السعى لإبطهاها عن طريق الكشف عن ميزات القرآن الذاتية ، أى بلاغته .

وتكشف أن عددا قليلا من المؤمنين بالصرفة جعلوها وجه الإعجاز الوحيد ، وهم ابن حزم وابن سنان والجوينى . أما بقية المؤمنين بها فعدها واحدا من وجوه متعددة للإعجاز بلغت - عند الماوردى - عشرين وجها . بل جمع أكثرهم بينها وبين النظم أو البلاغة ، وهما الوجهان اللذان اعتقد أكثر الناس - ولا يزالون يعتقدون - أنهما متضادان ، وأن القول بأحدهما ينفي القول بالآخر .

وقد سلم بعض الباحثين فى كلامهم بالصرفة . ولكننا عندما نعمن النظر فى مواقفهم ، نجدهم فعلوا ذلك فى أثناء الحوار بينهم وبين مخالفيهم ، أى أنهم اتخذوا هذا التسليم خطوة جدلية لإفحام خصومهم ، وإبانة أن الإيمان بها لا ينافى كونها أمرا خارقا للعادة (معجزة) دالا على نبوة محمد ، كما أعلن ابن كثير .

وسلم بها بعضهم الآخر لأنهم رأوها وجها محتملا لا يستلزم استبعاد بقية الوجوه . وأعتقد أن هذا هو موقف الخطابى ، وأن كلمة « قريب » عنده أراد بها « محتمل » . وعمد بعض العلماء كالطوسى والقاضى عياض إلى استعراض الأقوال المختلفة ، وفيها القول بالصرفة ، دون تفضيل واضح بينها ؛ أضعفوا الصرفة تضعيفا يسيرا كما فعل الماوردى وابن تيمية وابن جزى .

وتكشف عن موقف غريب لفخر الدين الرازى ، إذ قصر الصرفة على السور القصار ، وجعل البلاغة وجه إعجاز بقية سور القرآن ..

وتكشف عن أن بعض العلماء لم يكتفوا بالقول المرسل بل ألفوا كتباً فى الدفاع عن الصرفة كما فعل الشريف المرتضى وابن سنان .

ولم تفقد الكتب وحدها بل فقدت بعض الأقوال فضاعت ، ولم يصل إلينا منها غير ذكر لها أو مقتطفات ضئيلة منها . وهذا حال المرتضى والإسفرائينى ووصلت بعض التفاصيل عن مواقف النظام والجاحظ ، مما أتاح لنا وضوحا أكثر ، وإن لم نزل عنها كل الظلام . وأكثر المواقف وضوحا بموقف ابن حزم وابن سنان .

المصادر والمراجع

- الآلوسى ، محمود بن عبد الله : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - بيروت - دار الفكر - ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
- ابن الأثير ، على بن محمد : الكامل فى التاريخ - لبنان - دارا صادر وبيروت - ١٣٨٥ / ١٩٦٥ .
- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحلیم : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - مصر - مطبعة المدنى .
- ابن جزى ، محمد بن أحمد : التسهيل لعلوم التنزيل - مصر - مطبعة حسان - د . ت .
- ابن حزم ، على بن أحمد : الفصل فى الملل والأهواء والنحل - لبنان - بيروت - دار المعرفة - د . ت .
- ابن سنان الخفاجى ، عبد الله بن محمد : سر الفصاحة - مصر - مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده - ١٣٨٩ / ١٩٦٩ .
- ابن كثير ، إسماعيل بن عمر : تفسير القرآن العظيم - لبنان - بيروت - دار المعرفة - ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .
- ابن النقيب ، محمد بن سليمان البلخى : مقدمة تفسيره فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن - ط ١ - مصر - مكتبة ومطبعة الخانجى - ١٤١٥ / ١٩٩٥ .
- أبو ريدة ، محمد عبد الهادى : إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية - القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .
- أبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى القرآن - مصر - دار الفكر العربى - ١٩٧٧ .
- أبو زيد ، أحمد : المنحى الاعتزالى فى البيان وإعجاز القرآن - ط ١ - المغرب - الرباط - مطبعة المعارف الجديدة - ١٩٨٦ .
- أبو على ، د. محمد بركات حمدى : فى إعجاز القرآن الكريم - مؤسسة الخافقين ومكبتها - المكتبة الدولية - ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .
- أحمد ، محمد خلف الله ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن - مصر - دار المعارف - د . ت
- الأسد آبادى ، عبد الجبار بن أحمد : المغنى فى أبواب التوحيد والعدل - ط ١ - مصر - مطبعة دار الكتب - ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

(الصرقة)

- الأشعري ، علي بن إسماعيل : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - استانبول - مطبعة الدولة - ١٩٢٩ .
- الإيجي ، عبد الرحمن بن أحمد : المواقف بشرح الشريف الجرجاني - مصر - مطبعة السعادة - ١٩٠٧ / ١٣٢٥ .
- الباقلاني - محمد بن الطيب : إعجاز القرآن - ط ٤ - مصر دار المعارف - ١٩٧٧ .
: نكت الانتصار لنقل القرآن - مصر - الإسكندرية - منشأة المعارف .
- البدري ، د. علي : حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن - ط ١ - دار الطباعة المحمدية - ١٩٨٢ / ١٤٠٢ .
- ابن بدوي ، د. أحمد أحمد : من بلاغة القرآن - ط ٣ - مكتبة نهضة مصر بالفجالة .
- ابن البغدادي ، عبد القاهر بن طاهر : الفرق بين الفرق - لبنان - بيروت - دار المعرفة .
- ابن البوطي ، د. محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن - ط ٣ - مكتبة الفارابي - شعبان ١٣٩٢ - أيلول ١٩٧٢ .
- بوكاي ، موريس : دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - ط ٤ - لبنان - دار المعارف - سبتمبر ١٩٧٧ .
- الجاحظ : عمرو بن بحر : الحيوان - ط ٣ - لبنان - بيروت - دار الكتاب العربي - ١٣٨٨ / ١٩٦٩ .
- الجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن : دلائل الإعجاز - مصر - مطبعة المدني - ١٩٨٤ .
- الجويني ، عبد الملك بن عبد الله : العقيدة النظامية - مطبعة الأنوار - ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .
- الجويني ، د. مصطفى الصاوي : منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه - ط ٢ - مصر - دار المعارف - ١٩٦٨ .
- الحاجري ، د. طه : الجاحظ : حياته وأثره - مصر - دار المعارف - ١٩٦٢ .
- د. حسين ، عبد القادر : القرآن : إعجازه وبلاغته - مصر - المطبعة النموذجية - ١٩٧٥ .
- الحمصي ، نعيم : فكرة إعجاز القرآن - ط ٢ - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .
- حميدة ، عبد الحسيب طه : مع القرآن في آدابه ومعاملاته - ط ٦ - مصر - دار المعارف - ١٩٧٠ / ١٣٨٩ .
- حويش ، د. عمر الملا : تطور دراسات إعجاز القرآن - بغداد - مطبعة الآمة - ١٩٧٢ .
- الخطيب ، عبد الكريم : إعجاز القرآن - ط ٢ - لبنان - بيروت - دار المعرفة - ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

- خلف الله ، أحمد عز الدين : القرآنى يتحدى - ط ١ - مصر - مطبعة السعادة - ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .
- الدبل ، محمد بن سعد : النظم القرآنى فى سورة الرعد - مصر - عالم الكتب - دار النصر للطباعة الإسلامية - ١٩٨١ .
- دراز ، د. محمد عبد الله : النبأ العظيم - مصر - مطبعة السعادة - ١٣٨٩ / ١٩٦٩ .
- الرازى ، فخر الدين محمد بن عمر : نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز - مصر - : التفسير الكبير - ط ٢ - طهران - دار الكتب العلمية .
- الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد : مقدمة جامع التفاسير - ط ١ - الكويت - دار الدعوة - ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .
- الرافعى ، مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط ٨ - مصر - القاهرة - المكتبة التجارية - مطبعة الاستقامة - ١٣٨٤ / ١٩٦٥ .
- زرزور ، د. عدنان : الحاكم الجسمى ومنهجه فى تفسير القرآن - ط ١ - مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر - د. ت .
- : القرآن ونصوصه - دمشق - مطبعة خالد بن الوليد - ١٣٩٩ - ١٤٠٠ / ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .
- الزرقانى ، محمد عبد العظيم : مناهل العرفان فى علوم القرآن - لبنان - بيروت - دار إحياء التراث العربى - د. ت .
- الزركشى ، بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان فى علوم القرآن - ط ١ - مصر - دار إحياء الكتب العربية - ١٣٧٦ / ١٩٥٧ .
- الزملكاني ، عبد الواحد بن عبد الكريم : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - ط ١ - بغداد - مطبعة العاني - ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .
- سلطان ، د. منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة - منشأة المعارف بالإسكندرية - مطبعة الكاتب المصرى .
- سلام ، د. محمد زغلول : أثر القرآن فى تطور النقد العربى - ط ٢ - مصر - دار المعارف - ١٩٦١ .
- السلامى ، عمر : الإعجاز الفنى فى القرآن - تونس - مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله - ١٩٨٠ .

- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : الإتقان فى علوم القرآن - مصر -
المطبعة الموسوية - ٢٢ شعبان ١٢٨٧ .
- : معترك الأقران فى إعجاز القرآن - مصر - دار الفكر العربى - دار الثقافة العربية للطباعة
- ١٩٦٩ .
- الشاعر ، د. أحمد عبد الحميد : القرآن الكريم فى مواجهة الماديين الملحددين - ط ٢ -
الكويت - دار القلم - ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .
- شرف الدين ، د. صالحه عبد الحكيم : القرآن الحكيم - الكويت - مطابع كويت تايمز -
رجب ١٤٠٤ / أبريل ١٩٨٤ .
- الشريف المرتضى ، على بن الحسين : الأمالى - غرر الفوائد ودرر القلائد - ط ٢ - لبنان -
بيروت دار الكتاب العربى - ١٣٨٧ / ١٩٦٧ .
- : طيف الخيال - ط ١ - ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .
- الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل - لبنان - بيروت - دار المعرفة - ١٤٠٢
/ ١٩٨٢ .
- الصابونى ، محمد على : التبيان فى علوم القرآن - ط ٢ - مكتبة الغزالي بدمشق - ومؤسسة
مناهل العرفان ببيروت - ١٤٠١ / ١٩٨١ .
- الصباغ ، محمد : لمحات فى علوم القرآن واتجاهات التفسير - بيروت - المكتب الإسلامى -
١٣٩٤ / ١٩٧٤ .
- الطبرسى ، الفضل بن محمد : مجمع البيان فى تفسير القرآن - لبنان - بيروت - دار إحياء
الزراث العربى .
- الطوسى : محمد بن الحسن : تفسير التبيان - العراق - النجف الأشرف - مكتبة الأمين .
: تلخيص المحصل - مكتبة الكليات الأزهرية .
- عبد الرحمن ، د. عائشة : الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرى - مصر - دار
المعارف - ١٩٧١ .
- عز ، د. حسن ضياء الدين : بينات المعجزة الكبرى - ط ١ - سورية - دار النهضة -
١٣٩٥ / ١٩٧٥ .
- العلوى اليمنى ، يحيى بن حمزة : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز -
مصر - مطبعة المقتطف - ١٣٢٢ - ١٩١٤ .
- العمارى ، د. على : حول إعجاز القرآن - مطابع روز اليوسف الجديدة - ١٤١٩ .

- فقيهى ، محمد حنيف : نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني - صيدا - بيروت - المكتبة العصرية - ١٣٧٩ / ١٩٥٩ .
- القرطبي ، محمد بن عمر : الجامع لأحكام القرآن - مصر - دار الكتب .
- قصاب ، د. وليد : التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة - قطر - الدوحة - دار الثقافة - ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .
- القبطان ، مناع : مباحث فى علوم القرآن - ط٤ - مؤسسة الرسالة - ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .
- قمحاوى ، محمد الصادق : شبهات مزعومة حول القرآن الكريم ورددتها - ط١ - مصر - دار الأنوار للطباعة - ١٣٨٩ / ١٩٧٨ .
- الكرمانى ، محمود بن حمزة : أسرار التكرار فى القرآن - دراسة عبد القادر أحمد عطا - ط٣ - دار الاعتصام - دار العلوم للطباعة - ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
- كفافى ، د. محمد عبد السلام وعبد الله الشريف : فى علوم القرآن - بيروت - دار النهضة العربية - ١٩٨١ .
- لاشين ، د. عبد الفتاح : بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار - مصر - دار الفكر العربى - مطبعة دار القرآن - ١٩٧٨ .
- الماوردى ، على بن محمد : أعلام النبوة - ط١ - لبنان - بيروت - ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .
- اليحصبى : عياض بن موسى : الشفا بتعريف حقوق المصطفى - دار الوفا للطباعة والنشر - د. ت .

الانبياء بالغيب

مقدمة

وصف القرآن الله في كثير من السور بعلام الغيوب^(١) ، وعالم الغيب والشهادة^(٢) ، وعالم غيب السماوات والأرض^(٣) ، وعليم بذات الصدور^(٤) ، وأن الغيب لله عنده مفاتيحه^(٥) ، لم يطلع عليه أحدا^(٦) ، إلا من اجتبه من رسله فأوحى إليه شيئا منه^(٧) ، فلا يدري ما وراءه^(٨) .

يؤمن بذلك جميع المسلمين ، عدا القرامطة والديلم من الشيعة الإمامية . فالمرؤى عنهم أنهم يقولون : إنهم يعلمون الغيب ، ويقدرّون على كل شيء^(٩) .

واعتر حديث شريف بوجود ظاهرة الإنباء بالغيب في القرآن . روى أن النبي ﷺ قال لعلى بن أبى طالب ، وهو يجذره من اختلاف الأمة بعده : « عليكم بكتاب الله ، فإن فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم^(١٠) » .

وذكر محمد عزة دروزة أن بعضهم توقف في هذا الحديث كحديث مروى عن النبي وقالوا : إنه من كلام على . ثم عقب على هذا التوقف قائلا : ولو صح هذا القول ، فمعناه أن هذا المفهوم لمدى إعجاز القرآن صادر عن أناس من الرعيل الأول ، ومن الذين كانوا أقرب الناس للنبي ، وأفهمهم لمدى القرآن^(١١) .

(١) سور المائدة ١٠٩ ، ١١٦ . التوبة ٧٨ . سبأ ٤٨ . الجن ٢٦ .

(٢) سور الأنعام ٧٣ . التوبة ٩٤ ، ١٠٥ . الرعد ٩ . المؤمنون ٩٢ . السجدة ٦ . الزمر ٤٦ . الحشر ٢٢ . الجمعة ٨ . التغابن ١٨ .

(٣) سور البقرة ٣٣ . فاطر ٣٨ . الحجرات ١٨ .

(٤) سور آل عمران ١١٩ ، ١٥٤ . المائدة ٧ . الأنفال ٤٣ . هود ٥ . لقمان ٢٣ . فاطر ٣٨ . الزمر ٧ . الشورى ٢٤ . الحديد ٦ . التغابن ٤ . الملك ١٣ .

(٥) سور الأنعام ٥٩ . يونس ٢٠ . هود ١٢٣ . النحل ٧٧ . الكهف ٢٦ .

(٦) سورتا آل عمران ١٧٩ . الجن ٢٦ .

(٧) سور آل عمران ٤٤ . هود ٤٩ . يوسف ١٠٢ .

(٨) سور الأنعام ٥٠ . الأعراف ١٨٨ . هود ٣١ . (٩) الشافعى الملطى ٢٠ .

(١٠) تنزيه ١٠٧ بن عطية ١ / ١٣ . الصواف ٧٣ - ٤ . (١١) القرآن ٣٣٢ .

الفصل الأول

المؤيدون لكون الإنباء بالغيب وجه إعجاز

(١) القائلون بالشعب الثلاث

كانت أخبار الغيب فى القرآن من أول الأمور التى لفتت أنظار المسلمين ، فعدوها وجها لإعجاز القرآن . وكان أول من صرح بذلك من اشتهر عنه القول بالصرفة ، أعنى إبراهيم بن سيار النّظام (٢٣١ / ٨٤٦) . ذكر ابن الخياط رأيه فقال : اعلم أن القرآن حجة للنبي - عليه السلام - على نبوته - عند إبراهيم - من غير وجه :

فأحدها : ما فيه من الإخبار عن الغيوب^(١) ، مثل قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض ﴾^(٢) وقوله : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ﴾^(٣) وقوله : ﴿ ألم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾^(٤) وقوله : ﴿ أنكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا الموت ، إن كنتم صادقين ﴾ ثم قال : ﴿ ولا يتمنونه بما قدمت أيديهم ﴾^(٥) فما تمناه منهم أحد ، وقوله : ﴿ فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ﴾ الآية^(٦) .

ومثل إخباره بما فى نفوس قوم ، وبما سيقولونه .

وهذا وما أشبه فى القرآن كثير^(٧) .

وعند النظر إلى هذا القول نجد النظام أطلق الغيب على ظاهرتين :

- أحداث المستقبل .

- ما يضمرة الناس فى نفوسهم .

ولكن حكاية ابن حزم لرأى النظام تضيف إليهما : الأمور الماضية^(٨) . وإذن فقد

(١) الانتصار ٢٨ . فضل ٧٠ . الأشعري ٢٢٥ . البغدادى ١٤٣ . أبو ريدة ٣٤ . القطان ٢٦٢ .
الملا ٢٤٤ - ٥ . لاشين ٤٢٧ - ٨ . سلطان ٥١ . قمحاوى ٩٧ . السلامى ٥٩ . القصاب ٤٦ ،
٤٨ ، ٣٢٣ ، أبو زيد ٧٧ ، ٢٦٤ . (١) سورة النور ٥٥ .

(٣) سورة الفتح ١٦ .

(٤) سورة الروم ١ - ٣ .

(٥) سورة الجمعة ٦ ، ٧ . (٦) سورة آل عمران ٦١ .

(٧) الانتصار ٢٨ . أبو ريدة ٣٥ . الملا ٢٤٢ - ٤ . سلطان ٥١ . (٨) الفصل ١ / ٧٢ .
الشهرستانى ٥٦ / ٧ - الرافعى ١٦٢ . أبو ريدة ٣٤ . الحمصى ٥٤ . الملا ٢٤٥ . لاشين ٤٢٨ .

اشتمل الغيب عند النظام على ثلاث ظواهر :

- ما وقع فى الأزمان الماضية .

- ما يقع فى الأزمان المقبلة .

- ما يخفيه الناس فى سرائرهم .

وقد لاحظ د. نصر حامد أبو زيد أن خصوم المعتزلة ، والنظام خاصة يتجاهلون فى العادة رأيه فى إعجاز الغيب ، يفعلون ذلك من أجل الوثب إلى نتيجة فحواها أن النظام ومدرسته ينكرون إعجاز القرآن . والحقيقة أن الرجل لا ينكر الإعجاز من قريب أو بعيد^(١) .

يفعلون ذلك على الرغم من أنه يمكن القول - مع محمد الصادق قمحاوى - بأن كل من تحدث عن الإعجاز من المسلمين - إلا نفرا يسيرا - قبل هذا الوجه من الإعجاز^(٢) ، مع اختلاف فى سعة آرائهم .

فكان منهم من تابع النظام ، وتوسع توسعه ، فنادى بالإعجاز فى الشعب الثلاث من الغيب .

فعل ذلك أبو الحسن على بن محمد الماوردى (٣٦٤ - ٤٥٠ / ٩٧٤ - ١٠٥٨) الذى بلغت وجوه الإعجاز عنده عشرين وجها مستقلا لكل واحدة من شعب الغيب^(٣) . وامتاز الماوردى عن سابقه بمنح الشعبة الثالثة بعض الحديث ، قال فيه : الوجه التاسع من إعجازه ما فيه من الإخبار بضمائر القلوب التى لا يصل إليها إلا علام الغيوب ، كقوله : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾^(٤) من غير أن يظهر منهم قول أو يوجد منهم فشل ، وكقوله : ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾^(٥) إلى غير ذلك من نظائره^(٦) .

ورد على ما قد يوجه إلى كل واحدة من هذه الشعب :

فقال عن الإخبار بالأحداث الماضية : فإن قيل : الإخبار بما كان ليس بمعجز لأن علم غير الأنبياء به ممكن . فعنه جوابان :

- أحدهما : أنه ممكن فيمن علمها ، وممتنع فيمن لم يعلمها ولم يكن من أهلها فصار

(١) مفهوم ١٦٥ . (٢) شبهات ٩٦ . عائشة ٨١ . (٣) أعلام ٦٣ - ٥ .

(٤) سورة آل عمران ١٢٢ . (٥) سورة الأنفال ٧ . (٦) أعلام ٦٤ .

معجزا بالنسبة للثاني^(١) .

- والثاني : أنهم اقترحوا تحديهم مما لم يكن مبتدئا ، ولا كان له متاهيا ، من غوامض أسرار وغرائب أخبار ، جعلوها حجاجا له وعليه . ففصح بالجواب عن سراتها ، وصدع بنعت غوامضها . فخرج عن العرف إلى ما ليس بعرف . فصار معجزا^(٢) .
وقال عن الأحداث المستقبلية : فإن قيل : قد يكون ذلك حدسا بشواهد الأفعال ، وفراصة بفضل الألفية وقوة الفطنة ، فعنه جوابان :

- أحدهما : أن الحدس والفراصة ، وإن أصاب بهما صاحبهما تارة ، يخطئ بهما أخرى . ومحمد ﷺ أصاب في الجميع . فخرج عن الحدس والفراصة إلى علم من لا تخفى عليه الغيوب^(٣) .

- والثاني : أن الحدس والفراصة توهم غير مقطوع بهما قبل الوجود . وهذه أخبار مقطوع بهما قبل الوجود . فافتروا^(٤) .

وذكر أنه قد يعترض على الإخبار بما في الضمائر بأن العرف جرى بأن يختلف الجمع الكثير ، فإن وجد في بعضهم عزم على شيء لم يوجد في جميعهم ، فتقابل القولان فيهم ، وبطل الإعجاز . ثم قال : عنه جوابان :

- أحدهما : أنهم ووجهوا بهذه الأخبار على العموم ، فلم ينكروها . فزال هذا التفصيل ، فصار معجزا^(٥) .

- والثاني : أنه جعله ذنبا لهم ، فلم يتصلوا منه . فدل على وجوده من جميعهم^(٦) .
وأورد بدر الدين محمد بن بهادر الزركشى (٧٤٥ - ٧٩٤ / ١٣٤٤ - ١٣٩٢) اثني عشر وجها للإعجاز ، وما يوجه لكل واحد منها من اعتراضات . وجعل الوجه الثالث منها ما في القرآن من الإخبار عن الغيوب المستقبلية ، ولم يكن ذلك من شأن العرب^(٧) ، والوجه الرابع إخباره عن قصص الأولين حكاية من حضرها وشاهدها^(٨) ، والخامس

(٣) نفسه ٦٤ -

(٦) نفسه ٦٥ -

(٢) نفس الموضع .

(٥) نفس الموضع .

(٨) البرهان ٢ / ٩٦ -

(١) أعلام ٦٣ .

(٤) نفس الموضع .

(٧) البرهان ٢ / ٩٥ .

إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل^(١) . واستشهد بالآيتين اللتين استشهد بهما الماوردي . وأضاف إليهما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حِيُوكَ عَمَّا لَمْ يَحِيُوكَ بِه اللّٰهَ ، وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ : لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللّٰهُ ﴾^(٢) وإخباره عن اليهود أنهم لا يتمنون الموت أبدا^(٣) .

وأورد اعتراضا على الوجهين الأولين ، سنعرف بعدُ أنه أخذ من الخطابي ، قال فيه : وردّ هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التي لا خير فيها بذلك لا إعجاز فيها ؛ وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها . ثم ما لبث أن قال مبينا رأيه : نعم ، هما من أنواع الإعجاز ، إلا أنه منحصر فيهما^(٤) .

واقطف جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩ - ٩١١ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥) أقواله ، إلا أنه أهمل الاعتراض والرد عليه^(٥) .

وعرّف محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥) الغيب بأنه ما غاب علمه عن الناس . ثم قسمه قسمين :

١ - غيب حقيقى : لا يعلمه إلا الله ، ومن أظهره الله على بعض هذا الغيب من رسله فليس لهم فى ذلك كسب .

٢ - غيب إضافى : يعلمه بعض الخلق دون بعض ، لأسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطرى والعمل الكسبى^(٦) .

وتحسر رشيد رضا على الغافلين الذين حصروا الإعجاز فى فصاحة المفردات والجمل ، وبلاغة البيان ، على ما فى دلالة الفصاحة والبلاغة على النبوة من الخفاء على الأذهان^(٧) . وجعل ما فى القرآن من علم الغيب : بالماضى ، والمستقبل ، وما فى قلوب المنافقين وما سيقولونه فى بعض المسائل ، الوجه الثالث من وجوه سبعة للإعجاز^(٨) .

ثم جعل أنباء الغيب الماضية ناحيتين :

١ - قصص الرسل مع أقوامهم .

(١) نفس الموضوع . (٢) سورة المجادلة ٨ . (٣) البرهان ٢ / ٩٦ .
(٤) نفس الموضوع . (٥) الإتقان ٢ / ١٣٧ . الحمصى ١٦٢ - ٣ .
(٦) النار ١١ / ٢٢٤ . (٧) تفسير النار ١٢ / ٤٥ . (٨) نفسه ١ / ٢٠٤ .

٢ - أخبار التكوين : كخلق السماوات والأرض والإنسان والجان ،
وأخبار السنن العامة في الخلق الواردة في سياق تعداد النعم كما تراه في سورة النحل ،
أو سياق آيات الله وحججه على عباده كما تراه في سورة الروم . كما جعل أنباء
الغيب المستقبلية قسمين :

١ - وعد الله بنصر رسوله والمؤمنين ، وخذلان الكافرين ،

٢ - أخبار القيامة والحساب^(١) .

وأعلن أن هذه الأخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبونا ، وكون القرآن من
الله ، إذ لا يعلم الغيب غيره . ولا تمكن معارضتها بما يصح - بالمصادفة أو القرائن - أحيانا
من أقوال الكهان والعرافين والمنجمين . فإن كذب هؤلاء أكثر من صدقهم ، إن صحت
تسمية ما يتفق لهم صدقا منهم . لكن الناس لا يحصون عليهم أقوالهم . ولا يبحثون عن
حيلهم وتليبساتهم فيها . وإنما يذكرون بعض ذلك ، إذا اقتضته الحال ، كتشنيع أبي تمام
على المنجمين ، في زعمهم أن مدينة « عمورية » لا تفتح إلا عند نضح التين والعنب ،
في قصيدته المشهورة^(٢) .

واتفق محمد عبد العظيم الزرقاني (١٣٦٧ / ١٩٤٨) مع هؤلاء في قبول الإنباء
بالغيب وجها من وجوه الإعجاز ، وتقسيمه إلى ثلاث شعب ، ولكنه فيما وراء ذلك
كانت له نظرتة الخاصة .

فقد جعله الوجه السابع من أربعة عشر وجها^(٣) . ثم قسمه إلى :

- غيب الماضي^(٤) .

- وغيب الحاضر^(٥) .

- وغيب المستقبل^(٦) .

وأراد بغيب الحاضر ما يتصل بالله والملائكة والجن والجنّة والنار ونحو ذلك ، مما لم
يكن للرسول ﷺ سبيل إلى رؤيته ولا العلم به ، كما أراد به أيضا ما فضح الله به
المنافقين في عصر الرسول ﷺ مما كان قائما بهم ، وحفي أمره عليه . وإذن فقد اتسع

(١) نفسه ١٢ / ٣٤ - ٥ . الحمصي ٣٢٢ .
(٢) مناهل ٢ / ٢٦٣ . فقيهي ١٩٠ .
(٣) نفسه ١ / ٢٠٤ - ٥ .
(٤) نفسه ٢٦٣ - ٤ . النبأ ٤٥ .
(٥) نفسه ٢٦٤ - ٥ . النبأ ٤٥ .
(٦) نفسه ٢٦٥ - ٧٦ . النبأ ٤٥ .

الزرقانى بهذه الشعبة فضمنها ما كان غيره يسمونه الإنباء بما فى الضمائر ، كما ضمنها أشياء أخرى لم يدرجوها فيها^(١) .

وامتاز بالإفاضة الواسعة فى إيراد أمثلة الأنواع الثلاثة من الغيب من الآيات ومناقشتها، والرد على من أثاروا الشكوك حول أمية محمد ﷺ^(٢) .

واتبعه د. موسى شاهين لاشين فى التقسيم والدراسة مع الإيجاز الشديد . ولم يضيف إليه إلا قوله : دلالة غيب المستقبل على الإعجاز أقوى من غيب الماضى والحاضر ، لأنه لا يحتمل وراء ولا جدلا ، حين يمارى فى غيب الماضى أنه تعلمه من غيره ، وفى غيب الحاضر أنه افتراء أو أعانه على معرفته آخرون ، كما روى القرآن^(٣) .

وجعل د. حسين ضياء الدين عتر الإخبار عن الغيب ثمانية وجوه للإعجاز ، وتحدث فيه عن الشعب الثلاث . وقد قسم الغيب ثلاثة أقسام :

- غيب الماضى^(٤) .

- غيب الحاضر^(٥) .

- غيب المستقبل^(٦) .

ووضع فى غيب الماضى سير المرسلين ، ومناهج المؤمنين ، ومواقف أعداء الرسل الكافرين ؛ وفى غيب الحاضر كشف حقيقة المنافقين ، وإزاحة الستار عن خفايا نفوسهم . وقسم الإنباء بالمستقبل ثلاثة أقسام :

أولا : مستقبل الإسلام ورسوله وكتابه^(٧) .

ثانيا : مستقبل المسلمين^(٨) .

ثالثا : مستقبل المشركين^(٩) .

وتكشف أقوال د. عتر أنه اعتمد على القاضى عبد الجبار والآلوسى والزرقانى ودراز .

(١) نفسه ٢٦٤ . وأدخل فيه أيضا المسائل العلمية . النبأ ٤٥ .

(٢) نفسه ٢٦٣ - ٧٨ ، ٣١٧ - ٩ . النبأ ٤٥ - ٦٦ .

(٣) اللآلئ ٢٢٣ - ٥ .

(٤) بينات ٣٢١ . (٥) نفسه ٣٢١ ، ٣٢٥ .

(٦) بينات ٣٢١ ، ٣٢٨ .

(٩) بينات ٣٤٥ - ٥٨ .

(٧) بينات ٣٢٩ . (٨) بينات ٣٣٨ .

وجاء بفكرة أعتقد أنه استنتجها من قول الأصبهاني : إن الإخبار بالغيب معجز مهمما كان النظم الذى صيغ فيه . قال د. عتر : لا يتطلب هذا الوجه من الإعجاز - كالإعجاز البياني - ذوقا بلاغيا مرهفا ، ومعرفة لغوية عريقة ، مما لا يتوفر عند العامة عادة . فيمكن لكل إنسان - عريبا كان أو أعجميا - أن يرى الإعجاز ماثلا فيه ، فيتحذه دليل هدايته^(١) . وأفاض فى ذكر الأمثلة من كل نوع وتحليلها .

وعد أحمد عز الدين عبد الله خلف الله الشعب الثلاث من الإعجاز أيضا . ولكننا نتبين من كتابه أنه يتبع « معترك » السيوطى ، ويقسم الغيب إلى شعبتين اثنتين :

- وقائع المستقبل^(٢) .

- أخبار الأمم الماضية^(٣) .

أما بيان حقيقة ما فى الضمائر ، وبيان الوسائل والغايات ، وتحليل دوافع السلوك والأفعال ، فقد جمعها معا تحت وجه الإعجاز المتعلق بالنفوس البشرية وعزلها عن الغيب^(٤) .

ولم يعط خلف الله أخبار الأمم غير لمحة خاطفة ، وأخلص سائر حديثه لوقائع المستقبل^(٥) .

وقد استلهم محمد رشيد رضا فقسم هذه الوقائع إلى :

- ما يتعلق بالقرآن الكريم^(٦) .

- ما يتعلق بمسقبل الإسلام^(٧) .

- ما يتعلق برسول الله^(٨) .

- ما يتعلق بمسقبل حزب الله^(٩) .

- ما يتعلق بمسقبل حزب الشيطان^(١٠) .

وعنى عناية خاصة فى الرد على اعتراض الخطابى ومن لف لفه . قال :

-
- | | | |
|----------------------|---------------------|----------------------|
| (١) بينات ٣٢١ . | (٢) القرآن ١٩٤ . | (٣) نفسه ٢٢٠ . |
| (٤) نفسه ٢٧٤ - ٥ . | (٥) نفسه ٢٢٠ . | (٦) نفسه ١٩٧ - ٢٠٣ . |
| (٧) نفسه ٢٠٤ - ٥ . | (٨) نفسه ٢٠٥ - ١٠ . | (٩) نفسه ٢١٠ - ٥ . |
| (١٠) نفسه ٢١٥ - ٢٠ . | | |

١ - وجوه الإعجاز منها ما يتعلق بالقرآن كله جملة واحدة ، ومنها ما هو متعلق بسورة منه ، ومنها ما هو متعلق بالآية من آياته . وليس معنى خلو الآية من الإخبار بالغيب : خلوها من جميع وجوه الإعجاز .

٢ - وجوه الإعجاز لا تعد ولا تحصى . وكل آية وسورة فيها من وجوه الإعجاز ما يتناسب مع ما نزلت فيه . فلا تتشابه هذه الوجوه في كل السور والآيات . كما أنها قد تظهر للبعض وتخفى على الآخرين .

وقد لا يُنوّه عنها في عصر بينما تنتشر في عصر آخر . وهى تتجدد بتجدد البحث عنها . وهذا مما يدل على أنها لا تقع تحت الحصر .

٣ - من قال : إن التحدى فى الإخبار بالمغيبات ، إن وقع بعد عصر النبوة فقد فات زمنه ؛ قلنا له : إن إعجاز القرآن ليس موقوتا بزمن دون آخر ، بل هو قائم فى كل عصر . وما وقع من الإخبار بالمغيبات فى عصر النبوة فهو وجه من وجوه الإعجاز لأهل ذلك العصر ، ولمن بلغه ذاك . وكذلك الأمر فى الأخبار التى تضمنتها الآيات القرآنية ، ووقعت بعد عصر النبوة .

٤ - لا يجوز الطعن فى هذه الأخبار بأنها من أمور التنجيم أو الكهانة أو السحر . فهم جميعا يعلمون أنه ﷺ لم يجلس إلى أحد ليتعلم منه هذه العلوم التى تحرم الشريعة إتيانها . ولو كانت المسألة مسألة سحر - كما زعموا - فلماذا لا يأتون بسحر مثله ؟ ولا نعلم عنهم سوى الفشل المطلق فى الإتيان بمثل هذا القرآن^(١) .

وختتم خلف الله حديثه بجملة تكشف المعيار الذى راعاه القرآن فى الحديث بالغيب ، قال : ولا يعزب عن البال أن القرآن إنما يذكر من أنباء الغيب ما هو متصل بالرسالة الكبرى ، ومرتبطة بشؤون الدعوة إلى الله ، ومكمل للإنسان^(٢) .

(١) القرآن ١٩٤ - ٥ . (١) القرآن ٢٢٠ . (الصرفة)

(٢) القائلون بأحداث المستقبل وحدها

وكان منهم من قصر حديثه على الإنباء بأحداث المستقبل ، وعده واحدا من وجوه متعددة للإعجاز .

فعل ذلك على بن عيسى الرماني (٢٩٦ - ٣٨٤ / ٩٠٨ - ٩٩٤) الذي عدّ الغيب واحدا من سبع وجوه لإعجاز القرآن ، وعرفه بأنه الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية^(١) .

واحتج بأنه لما كان لا يجوز أن تقع هذه الوقائع متفقة مع الإخبار عنها ، دل ذلك على أن هذه الأخبار من عند علام الغيوب . واستشهد بقوله : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين^(٢) ﴾ فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين : العير التي كان فيها أبو سفيان ، أو الجيش الذي خرج من قريش لحماية العير . فأظفروهم الله بقريش يوم بدر على ما تقدم من الوعد . كما استشهد بآية الروم ، وعدم تمنى اليهود للموت ، وعجز المشركين عن معارضة القرآن ، وبقوله تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون^(٣) ﴾ وقوله : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر^(٤) ﴾ وقوله : ﴿ وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها . فجعل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ﴾ وقوله : ﴿ وأخرى لم تقدرُوا عليها ، قد أحاط الله بها ﴾ وقوله : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق : لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء الله - آمنين ، مخلقين رؤوسكم ، ومقصرين ، لا تخافون ﴾^(٥) .

ويتجلى في حديث القاضي أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادي (٤١٥ / ١٠٢٥) الفصل أنه لا يستخدم إلا الغيب والغيوب ، ويطلقهما على أحداث المستقبل ، غير مرتين تحدث فيهما عن « أفعال الناس إذا خلوا في منازلهم ، وعن ضمائرهم ، وعمما

(١) النكت ٦٩ ، ١٠١ . (٢) سورة الأنفال ٧ . (٣) سورة الصف ٩ .

(٤) سورة القمر ٤٥ . (٥) سورة الفتح ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ . النكت ٦٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .
الإتقان ٢ / ١٤١ . صقر : مقدمة إعجاز الباقلائي ١١ . فقيهي ١٤٩ - ٥١ . الملا ٢٧١ . لاشين ٤٤٠ . سلطان ٧١ . خلف الله ١٩٦ . قمحاوي ٩٨ . القصاب ١٢٩ ، ٣٢٣ .

يختاره الجمع أو الآحاد»^(١).

وقد ناقش القاضى الغيب نقاشا مفصلا ، تناول جوانب لم يتناولها غيره . فقد ذكر أن بعض الناس جوزوا أن يكون الكفار ظنوا أن القرآن تحداهم بما تضمنه من الأخبار عن الغيوب ، بدليل أن بعضهم - مثل النضر بن الحارث - سعوا للحصول على أخبار الفرس لبياروه بها^(٢) .

ولكنه استبعد ذلك ، وأعلن أن التحدى كان فى الفصاحة . واستدل بثلاثة أدلة ، هى:

- تحدى القرآن بمثل كل سورة ، من غير تخصيص . ولا تتضمن كل السور أخبارا عن الغيوب^(٣) .

- تحدى القرآن بجملة لا ببعضه . فكيف يصرف التحدى إلى ما يتضمن من الغيوب دون ما يتضمن من الحلال والحرام^(٤) .

- تحدى الرسول ﷺ العرب على الطرائق المعقولة عندهم ، وفى عاداتهم . وإنما اعتادوا التحدى فى [فصاحة] الكلام^(٥) .

ثم صرح القاضى أن شيوخه رأوا صحة كون القرآن معجزة ودلالة على النبوة ، من حيث يتضمن الأخبار عن الغيوب^(٦) .

وجعل الأصل فى ذلك أن الأخبار التى تتحدث عن العباد تنقسم قسمين :

- أحدهما أخبار تصدر عن علم .

- والآخر أخبار تصدر عن ظن وتبخيخ واتفاق . وأراد بالتبخيخ الاعتقاد الواقع على سبيل الابتداء من غير نظر فى شىء .

وأعلن أن القسم الثانى لا يجوز أن يتفق فيه الصدق ، على التفصيل ، وعلى طريقة واحدة ، وإنما يقع الصدق فى القليل اليسير^(٧) . فالقدر الذى يعرفه العباد من الأمور المستقبلية لا يبلغ الحد الموجود فى القرآن ، لأنهم إنما يعلمون ما جرت العادة بمثله ،

(١) المغنى ١٦ / ٣٣١ ، ٣٣٥ . (٢) المغنى ١٦ / ٢٨١ . (٣) المغنى ١٦ / ٢٢٠ .

(٤) نفس الموضع . (٥) نفس الموضع ، ٢٨١ . عائشة ٨١ - ٢ . لإشين ٤٨١ .

(٦) المغنى ١٦ / ٣٣٠ . (٧) المغنى ١٦ / ٣٣١ . الماوردى ٦٤ . خلف الله ١٩٥ - ٦ .

كحدوث البرد والحر في أوقاتها ، وسائر ما يعرفه أهل الفلاحة ، وما يتعاطاه الأطباء والمنجمون . وإنما يعرفون ذلك على جهة الجملة من غير تفصيل ، وعلى جهة التقريب من غير تحقيق ، في كثير منه^(١) .

واستشهد بعدد من الآيات^(٢) . ثم أبان كيفية دلالة هذه الأخبار على النبوة . ونفى أن تكون قد صحت عن طريق التبخيت أو الكهانة أو التنجيم أو السحر . ثم قال :

- إن طعن طاعن بأنه ﷺ جاء بهذه الأخبار ، ولم يظهر عنه تعاطى تلك العلوم ومجالسة أهلها ؛ فهذا كالمعجز أيضا ، لما بيناه من إصابته الدائمة .

- وإن كان ﷺ عرف هذه العلوم ، وإن لم يختلط بأهلها ؛ فهو كالمعجز .

- وإن كان اختص بالنظر في الكتب ، وعرف ذلك منها ، ولم تظهر حاله ولا حال

الكتب ؛ فذلك كالمعجز .

- وإن كان الله قد خصه بهذه العلوم ، فأمكنه الإخبار عن الأمور الكائنة والمستقبلية ؛

فهو معجز .

- وإن كان قد حصل ذلك منه اتفاقا ؛ فهو أيضا معجز ، لأن العادة لم تجر بمثله^(٣) .

وتبين كل هذه الوجوه صحة عظم شأن القرآن ، وأنه لا وجه يُجعل قَدْحًا فيه إلا ينعكس على المخالفين . فالإخبار بالغيب إذن أظهر حالا في الإعجاز من سائر

المعجزات . ولذلك صار شأنه أعظم من شأن جميع المعجزات^(٤) .

وقد أراد د . وليد قصاب أن يوضح موقف القاضي عبد الجبار فقال : تبنى القاضي

عبد الجبار رأى الخطأ . ولكنه يبدو أكثر تحفظا منه في قوله . فلا يرضيه كثيرا أن

يكون الحديث عن المغيبات تفسيرا للإعجاز ، لأنه خروج من التعميم إلى التخصيص ،

ومن دائرة واسعة إلى دائرة ضيقة مغلقة . فقد عمم القرآن في آية التحدى ولم يخصص .

ولذلك كان هذا القول في إعجاز القرآن بعيدا^(٥) .

(١) المغنى ١٦ / ٣٣٠ - ١ . خلف الله ١٩٥ .

(٢) نفسه ٣٣٢ - ٣ . (٣) نفسه ٣٣٤ - ٥ ، ٣٤٣ .

(٤) نفسه ٣٤٣ . (٥) التراث ٣٢٣ - ٤ .

والحق إن القاضى بدأ حديثه قريبا من الخطابى فى التحفظ والفرقة بين وجوه التحدى ووجوه الإعجاز . ولكنه أنهاه بعيدا عنه ، متخلصا من كل تحفظ ، معلنا أن هذا الوجه من الإعجاز أعظم شأننا من جميع الوجوه الأخرى .

وسار على الدرب أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى (٣٨٥ - ٤٦٠ / ٩٩٥ - ١٠٦٧) الذى قال فى تفسير آية التحدى فى سورة البقرة : فى قوله : ﴿ لَنْ تَفْعَلُوا ﴾ دلالة على صحة نبوته ، لأنه يتضمن الإخبار عن حالهم فى المستقبل بأنهم لا يفعلون . ولا يجوز لعاقل أن يقدم على جماعة من العقلاء يريد تعجيزهم ، فيقول : أنتم لا تفعلون ، إلا وهو واثق بذلك ، ويعلم أن ذلك متعذر عندهم^(١) .

وأعلن جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ / ١٠٧٥ - ١١٤٤) أن القرآن معجز من جهتين :

- جهة نظمه ،

- وجهة ما فيه من الإخبار بالغيوب .

ثم فسر الغيوب بما يدل على أنه أراد أحداث المستقبل^(٢) .

وتبع الزمخشري الطوسى فى تفسيره لآية التحدى ، وزاد قوله وضوحا . قال : فإن قلت : من أين لك أنها إخبار بالغيوب على ما هو حتى تكون معجزة ؟

قلت : لأنهم لو عارضوه بشيء ، لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله - فيما عليه مبنى العادة - محال ، لا سيما والطاعنون أكثف عددا من الذَّا بين [المدافعين] عنه . فحين لم يُنقل ، عُلم أنها إخبار بالغيوب على ما هو ؛ فكان معجزة^(٣) .

وقد ردد المفسرون بعد الطوسى والزمخشري فحوى أقوالهما فى تفسيرهم لهذه الآية ، بل أتى بعضهم بالقول نصا ، تاما أو مبتورا^(٤) .

(١) التبيان ١ / ١٠٧ . الرازى ١ / ١٢٠ . التوحيد ١٢٧ . المنار ١ / ١٩٥ . الزرقانى ٢ / ٢٧٦ .
عتر ٣٢٤ . خلف ١٩٩ . (٢) الكشاف ٢ / ٢٣٨ ، ٢٦٢ . (٣) الكشاف ١ / ٢٤٨ .
البيضاوى ١ / ٣٦ . النسفى ١ / ٣٢ . أبو حيان ١ / ١٠٦ . أبو السعود ١ / ٨٢ .
(٤) ابن عطية ١ / ٢٠٤ . الطبرسى ١ / ٦٣ . ابن الجوزى ١ / ٥١ . القرطبى ١ / ٢٣٤ . الخازن
١ / ٣٤ . ابن جزى ١ / ٧٢ . ابن كثير ١ / ٦٠ . القمى ١ / ٢٠٧ . الشوكانى ١ / ٥٣ .

ويستحق الذكر الخاص من بينهم فخر الدين محمد بن عمر الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦ / ١١٥٠ - ١٢١٠) لتفصيله وجداله . قال : فاعلم أن هذه الآية دالة على المعجز من وجوه أربعة :

- أحدها : أنا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا فى غاية العداوة للرسول ﷺ ، وفى غاية الحرص على إبطال أمره . فإذا انضاف إليها مثل هذا التقريع ، فلو كان فى وسعهم الإتيان بمثل القرآن ، أو بمثل سورة منه لأتوا به . فحيث أنهم ما أتوا به ، ظهر المعجز .
- ثانيها : أنه ﷺ كان معلوم الحال فى وفور العقل والفضل والمعرفة بالعواقب . فلو تطرقت التهمة إلى ما ادعاه من النبوة لما استجاز أن يتحداهم ، ويبلغ فى التحدى إلى نهايته . بل كان يكون خائفا مما يتوقعه من فضيحة يعود وبها على جميع أموره .
- ثالثها : أنه ﷺ لو لم يكن قاطعا بصحة نبوته لما قطع فى الخير بأنهم لا يأتون بمثله .
فالمبطل المزور لا يقطع فى الكلام ولا يجزم به .

- رابعها : أنه وجد مخبر هذا الخبر على ذلك الوجه ، لأنه من أيامه ﷺ إلى عصرنا هذا ، لم يخل وقت من الأوقات ممن يعادى الإسلام ، وتشتد دواعيه فى الوقعة به ، ثم إنه مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة قط^(١) .

وأورد عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجى (٧٥٦ / ١٣٥٥) الإخبار عن الغيب ضمن عدد من وجوه إعجاز القرآن^(٢) .

ثم أورد عددا من اعتراضات المعترضين عليه ، فكانت :

- الأول : أنه جائز كرامة إلا أن يتكرر إلى أن يصير معجزا ، ومراتبه غير مضبوطة . فكيف يعلم بلوغ القرآن مرتبة الإعجاز ؟^(٣) .

- الثانى : أنه يقع من المنجمين والكهنة ، وليس بمعجز اتفاقا^(٤) .

ثم رد على هذه الاعتراضات بأن حد المعجز تقضى به العادة ، وقد بلغ القرآن ذلك المبلغ^(٥) . وأراد بذلك أن الإنباء بالغيب كثر فى القرآن كثرة خارجة عن المعتاد المتعارف عليه ، فصار معجزا .

(١) مفاتيح ١ / ١٢٠ . النيسابورى ١ / ٢٠٧ .
(٢) المواقف ٣٥٠ .
(٣) المواقف ٣٥١ .
(٤) المواقف ٣٥١ .
(٥) المواقف ٣٥٤ .

وأضاف على بن محمد المعروف بالشريف الجرجاني (٧٤٠ - ٨١٦ / ١٣٤٠ - ١٤١٣) فى شرحه على مواقف الإيجى الردين التاليين :

- لم يبلغ إخبار المنجمين والكهنة ذلك المبلغ ، وأخبارهم عن الكسوف والخسوف من باب الحساب الذى قلما يقع الغلط فيه ، لا من قبيل الإخبار بالغيب^(١) .
- يكفينا فى إثبات النبوة اشتمال القرآن على ما هو خارق للعادة . ولا يضرنا عدم اشتمال بعضه عليه^(٢) . وقد استقى هذا الرد من قول للإيجى يعلن فيه : يكفينا كون القرآن بجملته معجزا^(٣) .

وسار السيد شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسى (١٢١٧ - ١٢٧٠ / ١٨٠٢ - ١٨٥٤) فذكر أن من القوم من يقول : إن إعجازه فى اشتماله على الإخبار بالغيب . ثم ذكر أن من القوم من يرد هذا القول معتلا بما يلى :

أولا : الإصابة فى المرة والمرتين ليست من الخوارق . والحد الذى يصير به الإخبار خارقا غير مضبوط . فإذا لا يمتنع أن يقال : ما اشتمل عليه القرآن لم يصل إليه^(٤) .
ثانيا : يلزم منه أن يكون إخبار المنجمين والكهنة عن الأمور المغيبة مع كثرة إصابتها معجزة .

ثالثا : يلزم أن تكون التوراة كذلك لاشتمالها كاشتماله .

رابعا : يلزم أن يكون الخالى من الإخبار بالغيب من القرآن غير معجز^(٥) .

ثم رد على أصحاب هذه الأقوال بأن اعتراضهم مكابرة . فلإن الإخبار عن الغائبات مع التكرر والإصابة غير معتاد ، ولا معنى لكونه معجزا غير هذا وما ذكره من الوجوه باطل للأسباب التالية التى اعتمد فيها على الإيجى :

(١) ٢٥٣ . الألوسى ١ / ٢٩ - ٣٠ .

(٢) ٢٥٣ . الألوسى ١ / ٣٠ .

(٣) المواقف ٣٥٣ .

(٤) روح ١ / ٢٨ .

(٥) نفس الموضع .

أما الأول فلأنه لا يلزم من عدم كون الإصابة فى المرة والمرتين من الخوارق أن لا تكون الإصابة فى المرات الكثيرة منها ، والضابط العرف ، ولا يخفى أن ما ورد فى أخبار الغيب فى القرآن مما يعد فى نظر أهل العرف كثيرا لا تُعتاد الإصابة فيه بجملته .

وأما الثانى فلأن أخبار المنجمين : ما كان كاذبا منها لا احتجاج به ، وما كان صادقا ، وتكررت الإصابة فيه كالكسوف والخسوف غير وارد ، لأنه من الحساب المعتاد لمن يتعاطى صناعة التنجيم . وأخبار القرآن بالغيوب ليست كذلك . وأما أخبار الكهنة فالقول فيها كما فى السحر .

وأما الثالث فلأن ما فى التوراة من الإخبار بالغيوب : إن كان كثيرا خارقا للعادة ، ووقع التحدى به ، فهو أيضا معجز ، وآية صدق لمن أتى به . ولا يضرنا التزام ذلك .
وأما الرابع فلأنه لا يرد على من يقول : وجه الإعجاز مجموع ما تقدم أصلا . ومن يقول : وجهه مجرد الإخبار بالغيوب يقول بأن الخالى من ذلك غير معجز . وإنما الإعجاز فى القرآن بجملته ، ويكفى ذلك فى غرضه^(١) .

(١) روح ١ / ٢٩ - ٣٠ .

(٣) القائلون بأحداث المستقبل مع تحفظ

وكان من الباحثين من قصر حديثه على الإنباء بأحداث المستقبل مثل الفريق السابق ، غير أنهم تحفظوا في قولهم حتى ظن بعض الناس أنهم من الراضين لهذا الوجه .

فعل ذلك أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (٣١٩ - ٣٨٨ / ٩٣١ - ٩٨٨) إذ قال: وزعمت طائفة أن إعجازه فيما تضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ، واستشهد بأية الروم ، وبقوله سبحانه : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب : استدعون إلى قوم أولى بأس شديد ﴾^(١) ونحوهما من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها .

ثم قال : ولا يُشك في أن هذا ، وما أشبه من أخباره ، نوع من أنواع إعجازه . ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن . وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها . فقال : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، إن كنتم صادقين ﴾^(٢) من غير تعيين . فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه^(٣) .

وقد ذهب د. عبد الفتاح لاشين إلى أن الخطابي - في هذا القول - أنكر إعجاز القرآن بما فيه من أخبار غيبية ، مثله مثل إنكاره للقول بالصرفة^(٤) .

ولكن محمد بركات حمدي أبو علي اختلف معه . فرأى أن الخطابي عدّ هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني ، ولكنه لم يرتضه وجها عاما للإعجاز لأمرين ، مع أنه لا ينكره، هما :

١ - لا يسحب أمر الإخبار على جميع سور القرآن ، إذ بعض السور لا خير فيها عن مستقبل ، ولا ينبئ عن أمر .

٢ - يوجد في بعض كتب الإخباريين والكهان والقصاص من أمر الأخبار السابقة الشيء الكثير . وهذا يعني توافق القرآن مع كتب غير المسلمين في ناحية . وهذا يقلل من قيمة الإعجاز القرآني^(٥) .

(١) سورة الفتح ١٦ . (٢) سورة البقرة ٢٣ .

(٣) بيان ٢١ . المغني ١٦ / ٢٢٠ . العلوي ٣ / ٣٩٨ . صقر ١٣ . فقهي ١٨٤ - ٥ . الخطيب ١٨٦ - ٧ . عائشة ٨١ . الملا ٢٧٤ - ٥ . عبد القادر ٧١ . خلف الله ١٩٦ . البدرى ١٣٨ ، وحذف الجزء الأخير من كلام الخطابي . (٤) بلاغة ٤٤٥ . (٥) في إعجاز ١٠٢ - ٣ .

ولم أجد الحجة الثانية التي نسبها أبو علي للخطابي في كتابه ، وأعتقد أن أقوال الخطابي اختلطت عنده مع أقوال غيره .

ووصف د. وليد قصاب موقف الخطابي فقال : إنه يرى فيه وجهاً من وجوه الإعجاز، ولكنه لا يتحمس له كثيراً ، ولا يطيل الوقوف عنده ، ويعلن تحفظه عليه^(١) .

ووقف أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (نحو ٥٠٢ / ١١٠٩) موقفاً قريباً من موقف الخطابي . فقد أعلن أن إعجاز القرآن :

- إما أن يتعلق بصرف الناس عن معارضته ،

- أو يتعلق بفصاحته .

ثم أعلن أن إعجاز الفصاحة :

- إما أن يتعلق بالألفاظ .

- أو يتعلق بالمعاني .

ورفض أن يكون الإعجاز في الألفاظ ، لأن ألفاظ القرآن هي ألفاظ العرب نفسها .

كما رفض أن يكون في المعاني ، لأن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدمة .

ولكنه أعلن في الوقت نفسه أن « ما هو معجز فيه جهة المعنى ، كالإخبار بالغيب ،

فإعجاز ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خيراً بالغيب »^(٢) .

وسبب هذا الموقف أنه كان يرى الإعجاز في النظم ، وأن « بالنظم المخصوص صار

القرآن قرآناً ، كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً ، والخطبة خطبة » . وأدى به

ذلك إلى نتيجة دقيقة فحواها أن الإعجاز بالغيب معجز ، سواء كان بهذا النظم أو غيره ،

مورداً بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى ، بإشارة أو بعبارة^(٣) .

وذهب شهاب الدين أحمد بن الخفاجي (٩٧٧ - ١٠٦٩ / ١٥٦٩ - ١٦٥٩) إلى أن

الإخبار بالغيب ليس وجه التحدى ، ولكن ذلك لا يتناقض عنده مع إعجازه^(٤) .

وعدّ محمد الصباغ إخبار القرآن عن الأمم السابقة ، والغيوب المستقبلية ، والسرائر

(١) التراث ٣٢٣ . (٢) مقدمة ١٠٤ - ٦ . الإتيان ٢ / ١٣٨ . صالحة ٧٠ .

(٣) مقدمة ١٠٦ . الإتيان ٢ / ١٣٨ . (٤) ٢ / ٣ ، ٣٥ ، ٢١ / ٥ ، ٧٦ ، ٨١ .

ودخائل النفوس ، دليل صدق نبوة الرسول ﷺ وأن القرآن من عند الله . ولكنه ليس موضع الإعجاز الذى رافقه التحدى^(١) .

واعتمد عبد القادر حسين على حجج الخطابي والعلوى اليمنى فى رفض كون الإنباء بالغيب وجه إعجاز . كما احتج أيضا بأن التنبؤ بالمستقبل وقصص الأنبياء ، وردت فى غير القرآن من الكتب المقدسة ، دون أن نسمع أن أهل الكتاب ادعوا الإعجاز للتوراة أو الإنجيل ، ولا ادعى لهم المسلمون ذلك ولم يقع بهذه الكتب التحدى كما وقع بالقرآن . وعلى الرغم من ذلك ، أعلن أن فى هذه الآيات دليل إعجاز القرآن ، أو أنها نوع من الإعجاز^(٢) .

ورفض د. محمد عبد السلام كفاى وعبد الله الشريف الأقسام الثلاثة من إعجاز الغيب ، على أساس من حجة الخطابي . ولكنهما فى الوقت نفسه أعلننا أن هذا لا ينفى عندهم أن مثل هذا الإخبار من أسرار الإعجاز فى الآيات التى تحدثت به^(٣) .
ويمكن أن نقول إن جميع أفراد هذه الفئة يرى الإنباء بالغيب نوعا خاصا من الإعجاز، وأنه ليس الإعجاز الذى اعتمد عليه التحدى القرآنى إلى المعارضة .

(٢) القرآن ٧٠ - ٥ .

(١) لمحات ٥٥ - ٧ .

(٣) فى علوم ١٤٠ - ١ .

(٤) القائلون بأحداث المستقبل والماضي

وكان منهم من قبل الإنباء بغيب الماضي والمستقبل ، وعدهما وجهها أو وجهين من وجوه الإعجاز .

فعل ذلك أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي (٣٣٨ - ٤٠٣ / ٩٥٠ - ١٠١٣) الذي أعلن أن الإعجاز ثلاثة وجوه .

جعل الأول منها ما يتضمن القرآن من الإخبار عن الغيوب [المستقبلية] ، والصدق والإصابة في كل ما قاله ، مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . واستشهد بعدد من الآيات ، التي وافق النظام في الحكم بكثرتها . ثم أعلن أنه أراد التنبيه ببعض على الكل^(١) .

وأخص بالذكر منها قوله عز وجل : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾^(٢) . فقد تردد تعليقه عليها في الكتب بعده . قال : ففعل [الله] ذلك . وكان أبو بكر الصديق ، إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، ويستيقنوا بالنجح .

وكان عمر بن الخطاب يفعل كذلك في أيامه ، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه . فكان سعد بن أبي وقاص وغيره من أمراء الجيوش ، من جهته ، يذكر ذلك لأصحابه ، ويحرضهم به ، ويوثق لهم .

وكانوا يلقون الظفر في متوجّهاتهم ، حتى فتح إلى آخر أيام عمر جميع ما كان من مملكة كسرى ، وكل ما كان يملكه ملوك فارس بين البحرين : من الفرات إلى جيحون ، وأزال ملك ملوك الفرس ، فلم يعد إلى اليوم ، ولا يعود أبداً ، إن شاء الله . وأزال ملك قيصر عن إرمينية والشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر . ولم يبق منها إلا ما حجزه دونه بحر ، أو حال عنه جبل منيع ، أو أرض خشنة ، أو بادية غير مسلوكة^(٣) .

(١) إعجاز ٣٣ - ٤ ، ٤٨ . الحمصي ٤٠٩ . البوطي ١٦٠ . الخطيب ٢٠٤ - ٥ . الملا ٢٧٨ ، ٣٠٥ .

لاشين ٤٥٨ - ٩ . عبد القادر ٦٨ . البدرى ١٣٣ . قصاب ٣٢٣ . (٢) سورة التوبة ٣٣ .

(٣) إعجاز ٣٣ - ٤ . القرطبي ١ / ٧٥ . لاشين ٤٥٨ - ٩ . عبد القادر ٦٨ .

وجعل الوجه الثاني ما حُكى فى القرآن ، من قصص الأولين وسير المتقدمين ، حكاية من حضرها وشهدها ، مع أن المعلوم من حال النبى أنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، ولم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين . فأتى القرآن بجمُل ما وقع من عظيمات الأمور ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم إلى حين مبعث محمد^(١) .

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم .

وإذ كان معروفاً أن محمداً :

- لم يكن مُلابساً لأهل الآثار وحملة الأخبار .

- ولا متزديداً إلى التعلم منهم ،

- ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه .

ولا شك فى كل ذلك ، لأن من كان يتزدد على التعليم لم يكن يخفى على الناس

أمره، ولا يشتبه مذهبه^(٢) ؛

إذ كان ذلك كذلك ، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي .

ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذاً

لارتاب المبطلون ﴾^(٣) .

ويبين لنا هذا أن أخبار الماضين صارت عنده معجزة ، لأنها جاءت على لسان أمى لم

يُعرف عنه الاطلاع عليها . فلا بد إذن فى هذا الوجه من اقتزان هذا الإخبار بالأمية .

وروى السيوطى أن محمد بن سراقه (نحو ٤١٠ / ١٠٢٠) قال : اختلف أهل العلم

فى وجه إعجاز القرآن . فذكروا فى ذلك وجوها كثيرة كلها حكمة وصواب . وشرع

يسرد هذه الوجوه إلى أن قال :

- وقال آخرون : هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية .

- وقال آخرون : هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع^(٤) .

(١) إعجاز ٣٤ ، ٤٩ . القرطبى ١ / ٧٤ . الحمصى ٤١٠ ، ٤١٨ . البوطى ١٦١ ، ٢٢٠ .

الخطيب ٢٠٥ . عائشة ٨٢ . الملا ٢٧٨ ، ٣٠٥ . البدرى ١٣٦ . صالحه ٨١ .

(٢) إعجاز ٤٩ . البوطى ١٦١ . الملا ٢٧٩ . (٣) سورة العنكبوت ٤٨ .

(٤) الإقتان ٢ / ١٤١ . الحمصى ٨٠ . صالحه ٨٠ .

وذهب القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٤٧٦ - ٥٤٤ / ١٠٨٣ - ١١٤٩) إلى أن للإعجاز أربعة وجوه بيّنة لا نزاع فيها ولا مرية .

وجعل الوجه الثالث منها ما انطوى عليه القرآن من الإخبار بالمغيبات ، وما لم يكن ولم يقع ، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر القرآن به^(١) .

وجعل الوجه الرابع ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة ، مما كان لا يعلم القصة الواحدة منه إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب ، الذي قطع عمره في تعلم ذلك . فأورده القرآن على وجهه ، وأتى به على نصه . فاعترف العالم بصحته وصدقه ، وأن مثله لم ينله بتعليم ، إذ علموا أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسة^(٢) .

وكان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه ﷺ عن هذا . فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرا .

ومع هذا لم يُحَكَّ عن أحد من أهل الكتاب - على شدة عداوتهم له ، وحرصهم على تكذيبه ، وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم ، وتقريرهم بما انطوت عليه ، وكثرة سؤاها وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم ، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم - أنه أنكر ما قال أو كذبه .

ومن باهت فى ذلك بعض المباهة ، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة ، دُعِي إلى إقامة حجته وكشف دعوته . فقيل له : ﴿ قل : فأتوا بالتوراة ، فاتلوها إن كنتم من الصادقين . فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك ، فأولئك هم الظالمون ﴾^(٣) .

وأعلن أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (٤٨١ - ٥٤٢ / ١٠٨٨ - ١١٤٨) أن الناس اختلفوا فى إعجاز القرآن ، ثم ذكر أن :

(١) الشفا ٥١٨ - ٢١ ، ٧٣٦ . الاتقان ٢ / ١٤١ - ٢ . معترك ١ / ٢٣٩ . الخطيب ٣١٥ .

البنورى ٨٧ . قمحاوى ٢٢ . شعبان ٣٢٧ . صالحه ٧٦ .

(٢) الشفا ٥٢٢ . الإتقان ٢ / ١٤٢ . معترك ١ / ٢٤٠ . الخطيب ٣١٦ . قمحاوى ٢٤ . شعبان ٣٢٧ . صالحه ٧٦ .

(٣) سورة آل عمران ٩٣ ، ٩٤ . الشفا ٥٢٢ - ٥ . معترك ١ / ٢٤١ .

- قوما قالوا : إن التحدى وقع بالكلام القديم ،
- وقوما قالوا : إن التحدى وقع بما فى كتاب الله من الأنباء الصادقة والغيوب
المسرودة^(١) . ويبدو أنه أراد بذلك أنباء أحداث الماضى والمستقبل ، فيكون ممن وافق
الباقلانى ، وإن كان هناك حديث عن قوله التحدى دون الإعجاز .
وأردف ابن عطية يقول : هذان القولان إنما يرى العجز فيهما من قد تقررت الشريعة،
ونبوة محمد ﷺ فى نفسه . وأما من هو فى ظلمة كفره فإنما يُتحدّى فيما بين له - بينه
وبين نفسه - عجزه عنه ، وأن البشر لا يأتى بمثله ، ويتحقق مجيئه من قبل المتحدّى^(٢) .
ولا نجد جديدا عند من جاء بعد هؤلاء من المفسرين والباحثين الذين قبلوا الغيب
بشقيه فى وجوه الإعجاز . وإنما نلاحظ أن منهم من أتى بذاك فى أقصر عبارة^(٣) ، ومن
رفض الاختصار عليه محتجا بما قال الخطابى^(٤) ، ومن أفاض دون إضافة فكرية ذات
قيمة^(٥) .

ويمكن أن أمثل لذلك بالمطاعن التى نقضها محمد الخضر حسين والتجاوزات التى
اشتط فيها بعضهم فعّد من الإنباء بالغيب أمورا لم يرض عنها . قال : ولا يدخل فى
الإخبار بالمغيبات ما توهمه بعضهم من أن مصر تُفتح للعثمانيين ، فى عهد السلطان سليم
سنة كذا ، أخذنا من قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر : أن الأرض
يرثها عبادى الصالحون ﴾^(٦) . إذ أن حروف (ولقد) توافق حروف (سليم) فى حساب
الجُمَّل ، و(الذكر) يوافق حسابها تلك السنة ، فيكون المعنى : سليم كتبنا فى الزبور ،
من بعد تلك السنة : أن الأرض - أى مصر - يرثها عبادى الصالحون ، وهم العثمانيون .
فلا يؤخذ من القرآن إلا ما نزل للهداية ، وما حصل من فتح سليم لمصر فى السنة
المذكورة كان مجرد مصادفة^(٧) .

(١) المحرر ١ / ٥٩ . الخطيب ٣٢٠ .
(٢) المحرر ١ / ٥٩ . الخطيب ٣٢٠ .
(٣) الطبرسى ١ / ٦٢ . القرطبي ١ / ٧٤ - ٥ . القاسمى ١ / ٢٨٢ . المراغى ١١ / ١٠٦ . العانى ١٨٠ .
(٤) مفاتيح ١٧ / ٩٥ ، ١٩٥ . نهاية الإيجاز ٧ . الزمركانى ٥٥ ، ٦٠ . الجواب الصحيح ٤ / ٧٤ .
(٥) الفوائد ٢٤٨ - ٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ . معترك ١ / ٣٩ - ٤٢ . مدخل دراز ١٧٧ - ٩ . حميدة ٤٢ -
٤ . أبو زهرة ٣٣٩ - ٤٢ . الصابونى ١١٩ - ٢٤ .
(٦) سورة الأنبياء ١٠٥ .
(٧) بلاغة ٥٥ - ٦ .

وعنى مصطفى الدباغ بإثبات ما جاء فى القرآن عن عاد وثمود وأبرهة الحبشى ،
وتصحيح بعض ما حرف فى التوراة والإنجيل^(١) .

(٥) القائلون بالمستقبل ونجوى السرائر

وقصر محمد وفا الأميرى حديثه على أحداث المستقبل ، ونجوى السرائر ، وأهمل
قصص الأنبياء والصالحين . فجعل الفصل السادس من كتابه لكشف الله بالقرآن مكائد
الكافرين ودسائس المنافقين^(٢) ، والفصلين التاسع والسادس عشر لحديث القرآن عن أمور
غيبية مستقبلية وتحققها^(٣) ، وعن الحوادث الهامة التى ستمر على المسلمين^(٤) . وقال عن
النوع الأول : فكان هذا من أعظم ألوان إعجازه الذى خدم الدولة الإسلامية الفتية ،
وخلصها من المخاطر والدسائس^(٥) .

(٦) التقسيم الرباعى

وانفرد د. سامى عبد العزيز الكومى بتقسيم الغيب ، الذى عدده السادس من وجوه
الإعجاز ، إلى أربع شعب ، هى :

- غيب الماضى ، الذى أخبر فيه القرآن بقصص الرسل السابقين وأخبار الأمم السابقة،
على لسان أمى ، كشف الله له حجاب الغيب .
- غيب الحاضر ، الذى أخبر فيه عما يقوله المشركون ، وما يفعلونه ، وما سيحدث
لهم ، ويشرح ما يدور فى نفوسهم .
- غيب المستقبل ، الذى أخبر فيه عن أحداث ستقع فيما بعد .
- غيب الكون ، الذى أخبر فيه عن ظواهر اكتشفها العلم فيما بعد فاتفقت مكتشفات
العلوم تماما مع آيات القرآن^(٦) .

(١) وجوه ٧ - ١٠ . (٢) ألوان ٣١ - ٢ . (٣) نفسه ٣٧ - ٨ .
(٤) نفسه ٥٩ - ٦٢ . (٥) نفسه ٣١ . (٦) الإعجاز ٣٠ - ٢ ، ١٠٣ - ٤ .

ولا أعنى بذلك أن أحدا لم يتناول المكتشفات العلمية أو يربط بينها وبين الإنباء بالغيب ، بل فعله كثيرون كما يوضح كتاب الإعجاز العلمى غير أن د. الكومى كان صريحا وواضحا ومباشرا فى جعله أحد أقسام الغيب ، من بين من جعلوا إعجاز الغيب لا الإعجاز العلمى موضوع بحثهم .

(٧) التقسيم المضطرب

واضطرب التقسيم عند محمد متولى الشعراوى . فاستهل الفصل الذى عقده للغيب^(١) . بأن حواجز الغيب التى مزقها القرآن ثلاثة : حاجز المكان ، وحاجز الزمن الماضى ، وحاجز المستقبل . ثم أضاف إليها حاجزا آخر ، هو حاجز النفس البشرية ، أى ما يخفيه الإنسان داخل نفسه^(٢) .

ثم وضع ما أراد بكل حاجز ، فأبان أن حاجز الزمن الماضى يغلف ما حدث للأمم السابقة^(٣) ، وأن حاجز المكان يحجب حديث النفس^(٤) ، وأن حاجز المستقبل يحوى الأحداث المقبلة قريبة وبعيدة ، ومنها الكشوف العلمية^(٥) . فصارت الحواجز ثلاثة لا أربعة .

وأعاد الحديث عن إيراد القرآن لتنبؤاته على سبيل القطع واليقين ، وتصحيحه لأخبار أهل الكتاب المحرفة ، وأعلن أن إيراده للحقائق العلمية يعد تحديا للأجيال إلى يومنا وإلى الأيام القادمة .

(١) معجزة ١ / ١٠٣ - ٢٧ . (٢) معجزة ١ / ١٠٣ . (٣) نفس الموضوع .
(٤) معجزة ١ / ١٠٤ . (٥) معجزة ١ / ١٠٨ .

الفصل الثانى

الرافضون لكونه وجها للإعجاز

وكان منهم من رفض رفضا قاطعا أن يعد الإنباء بالغيب جملة وجها من وجوه الإعجاز :

فعل ذلك على بن أحمد المعروف بابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦ / ٩٩٤ - ١٠٦٤) . فقد أورد رأى النظام أن إعجاز القرآن بالإنباء بالغيب وليس بالنظم . وأعقبه بأن سائر أهل الإسلام يقولون : بل كلا الأمرين معجز ، وهذا هو الحق الذى ما خالفه فهو ضلال .

ثم رفض عد الإنباء بالغيب وجها من وجوه الإعجاز ، معتمدا على ما قاله الخطابى ، قال : أكثر سور القرآن ليس فيها إخبار بغيب . فمن جعل المعجز الإخبار بالغيب كان مخالفا لما نص الله على أنه معجز من القرآن . فسقطت هذه الأقاويل الفاسدة^(١) .

وقد وهم د . محمد عبد الهادى أبو ريدة من عبارة ابن حزم المبهمة فى التعبير عن رأى « سائر أهل الإسلام » فظنه من أنصار الإعجاز بالغيب^(٢) .

ولست أدرى علام اعتمد محمد الصادق قمحاوى فى قوله عن ابن حزم : « ورأيه فى الإعجاز من ثلاثة وجوه : الإخبار بالغيب ، ولنظمه الذى لا يقدر عليه العباد ، ولأن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله^(٣) » .

فالمعروف أنه قال بالصرفة ، وأعرض عن البحث فى وجه الإعجاز ، لأن مذهبه الظاهرى يجعله ممن يمتنعون عن تعليل أعمال الله وأوامره .

وتعرض فخر الدين الرازى لقضية الإخبار بالغيب فى كتاب « محصل أفكار المتقدمين » ، وذهب إلى أنها ليست مسلمة ، لأن الكهان قد يطلقون خيرا . فإذا صحَّ تباهاؤا به ، وعدوه من معرفتهم بالغيب . وإذا لم يصح قالوا : سيأتى زمان يقع فيه ، ونحن لم نعين لكم ذلك الزمان^(٤) .

كذلك رفض يحيى بن حمزة العلوى اليمنى (٦٦٩ - ٧٤٥ / ١٢٧٠ - ١٣٤٤) القول بكون الاشتمال على الأمور الغيبية وجه الإعجاز . واحتج بحجة الخطابى ، ثم أضاف إليها : إن هذا القول يكون أعظم عذرا للعرب فى عدم قدرتهم على معارضته .

(٢) إبراهيم ٣٢ .

(٤) ١٥٢ .

(١) الفصل ٣ / ١٦ - ٧ .

(٣) شبهات ٩٩ .

ولو كان ذلك صحيحا لكان من حقهم أن يقولوا : إنا متمكنون من معارضة القرآن . ولكنه اشتمل على مالا يمكننا معرفته من الأمور الغيبية . ثم أعلن : لما لم يقولوا ذلك دل على بطلان هذه المقالة^(١) .

ورفضه نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (بعد ٨٥٠ / ١٤٤٦) الذى قطع بأن الأمر أمر أسلوبه ونظمه المؤثر فى القلوب تأثيرا لا يمكن إنكاره ، وقال : من فسر الإعجاز بأنه صرف الله البشر ... أو بكونه مشتملا على الإخبار بالغيوب ، وبما ينخرط فى سلك هذه الآراء ، فقد كذب ابن أخت حالته^(٢) .

وذهب د. أحمد أحمد بدوى إلى أن التنبؤ بالغيب والحديث عن الماضين إن اتخذا دليلا على نبوة محمد ، لا يصلحان برهانا على إعجاز القرآن . واستند فى ذلك إلى حجة الخطابى . وذكر أن بعضهم استند فى رفض هذا الوجه إلى أن القرآن حين تحدى العرب ، قالوا لرسول الله : إنك تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا . وادعوا أنه يؤلف القرآن ثم ينسبه إلى الله افتزار عليه . فتحداهم أن يأتوا بمثله مفترى ﴿أم يقولون : افتراه قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(٣) . وظن صاحب هذا القول أن القرآن عندما تحداهم أن يأتوا بسور مفتريات ، سمح لهم أن يأتوا بالقصص الكاذبة فى معارضة القرآن . ثم أعلن : إنه أعلن : إنه لا يرى الآية تشير إلى ذلك . فكيف تكون السور مثله ، وفى الوقت نفسه مفتريات ؟ وإنما يجاريهم القرآن فى دعواهم أنه افترى الكذب على الله ، فقال فى الرد عليهم : هاتوا كلاما كاذبا كهذا الذى أتيت به^(٤) .

وأعلن محمد حنيف فقيهى أن العرب لم يذهلهم القرآن لأنه يخبر عن الغيب ، ولا لأنه يتحدث عن أخبار الماضين ، ولا .. ولا لما شاكل هذه كلها ، وإنما أذهلهم بيانه . ولكنه قال بعد ذلك بمدة : إن ذلك كان رأيه ، أما الآن فإنه يرى غير ذلك^(٥) .

ورد مناع القطان وجه الغيب ، وحكم عليه بالبطلان ، اعتمادا منه على حجة الخطابى^(٦) .

(١) الطراز ٣ / ٣٩٠ ، ٣٩٨ . (٢) غرائب ١ / ٢٠٢ . (٣) سورة هود ١٣ . (٤) من بلاغة ٤٩ - ٥١ . (٥) نظرية ١٩١ - ٢ . (٦) مباحث ٢٦٢ .

خاتمة

تكشف لنا هذه الجولة أن القول بأن إنباء القرآن بالغيب أحد وجوه الإعجاز وُلد كاملا على يدى النظام ، إذ تحدث عن شعبه الثلاث : وقائع الماضى ، وأحداث المستقبل، وما تخفيه السرائر . ولم يضيف إليها أحد شعبة أخرى إلا الكومى ، الذى جعل الإعجاز العلمى شعبة رابعة له . وكان بعض من كتبوا عن هذا الوجه قد وصلوا بين الظاهرتين . وتكشف أن ما كشفه الخطابى من مفارقة بين هذا الوجه الذى لا يوجد إلا فى بعض الآيات ، وبين عمومية آية التحدى فى سورة البقرة ، صار العماد الرئيسى لدارسى هذا الوجه من الإعجاز ، على الرغم من عدم وضوح موقف الخطابى واختلاف الدارسين فى توضيحه .

فصار سبب رفض كل من أبى أن يكون الإنباء عن الغيب أحد وجوه الإعجاز ، ما عدا ابن حزم الذى كانت ظاهريته سبب رفضه ، وإن كان دعمها بقول الخطابى . وصار سبب تردد فئة أخرى من الدارسين . فساق الخطابى إلى عده نوعا من أنواع الإعجاز غير أنه ليس الإعجاز الذى استند إليه التحدى . وساق الزركشى إلى عده إعجازا جزئيا ، يوجد فى بعض الآيات وينحسر عن بعضها الآخر . وأجبر من قبل الغيب وجهها للإعجاز إلى التعامل معه .

ولذلك رأيت أن أصنف المتعاملين مع الغيب إلى سبع فئات ، تناولت كل واحدة منها على حدة .

وعلى الرغم من هذا التصنيف ، توجد ظواهر عمت ما تضمن من فئات أو أغلبها . وأول هذه الظواهر أننا لم نجد أحدا يقول بالغيب وجهها وحيدا للإعجاز ، وإنما عده من قبله واحدا من وجوه متعددة .

وثانيها أن أحدا لم ينكر إنباء بعض الآيات القرآنية بالغيب . وإنما الاختلاف فى عده من وجوه الإعجاز .

وثالثها أمية النبي ﷺ التي أصر كل من كتب عن إعجاز القصص القرآني على ذكرها لأنها دعامة هذا الإعجاز ، بل تجاوزته عند بعضهم إلى إعجاز أخبار المستقبل ، وهي غير ضرورية له .

ورابعها وجود عدد من الآيات ردها معظم من كتبوا إن لم يكن كلهم ، مثل آية انتصار الروم على الفرس ، وانهزام المشركين في بدر ، وفتح مكة . ولا أعنى بذلك أن هذه الآيات بقيت هي هي عندهم ، بل كان الخلف يزيد فيها على السلف . فإذا ألقينا نظرة تاريخية على الكتابة عن الغيب ، وجدنا أول من كتب عنه - بعد النظام - : الرماني ، وهو متكلم معتزلي مثل سابقه ، ووجدناه اقتصر على الحديث عن المستقبل ، واكتفى بإعلام أن وقوع الأحداث متفقه مع إخبار القرآن دل على أن الآيات التي حملت هذه الأنباء من عند علام الغيب ، وبالاستشهاد بعدة آيات وردت فيها أخبار مستقبلية .

ثم جاء الخطابي - المحدث اللغوي - بملاحظته القيمة .

وعاد الباقلاني من الأشعرية إلى التوسع ، فعَدَّ كلا من غيب المستقبل وغيب الماضي وجهًا مستقلا من وجوه الإعجاز . وعنى في أولهما بالآية ٣٣ من سورة التوبة ، التي بشرت بإظهار الله للإسلام على جميع الأديان ، وما كان لذلك من أثر في حفزهم المسلمين ، واستبسال المقاتلين . وعنى في الثانية عناية مفصلة لأول مرة بأمية النبي ﷺ التي جعلت حكايته لقصص الأولين وجهًا من الإعجاز .

ووجه القاضي عبد الجبار بن أحمد - المعتزلي - القسط الأكبر من جهوده إلى تخليص الغيب مما قد يختلط به من شوائب ، فيفسد أمره أو يغطي وجهه . ففرق بين غيب المستقبل والتنجيم والعرافة والكهانة والسحر ، وبين غيب الماضي والحدس .

وفرّق بين التحدي والإعجاز ، فرأى أن الإعجاز يمكن أن يكون في الغيب . أما التحدي فلا يمكن صرفه إلى بعض القرآن دون بعض ، وأنه كان وفق العرف العربي ، أي الفصاحة .

وخلص إلى أن القرآن لم يوجه إليه قدح إلا انعكس وصار منقبة ؛ وإلى أن الغيب

أعظم وجوه الإعجاز ، لأنه يشمل العرب والعجم ، ولا يحتاج إدراكه إلى معرفة باللغة العربية أو تبحر فيها أو إلى قسط مهما كان من التعلم .

وجعل الماوردى كل واحد من الشعب الثلاث وجها مستقلا للإعجاز . وعنى - مع إيجازه - بما وجه إلى كل وجه منها من اعتراض ، ورد عليه . فعاد إلى الحديث عن أمية محمد ﷺ والتفرقة بين الغيب القرآنى والحدس . وكان أول من نبه إلى أن بعض القصص القرآنى تلبية لطلب المشركين واليهود الذين بغوا تعجيزه وإعناته ، مما ينفى عنه سبق معرفته ؛ وأول من نبه إلى أن بعض ما كشفه القرآن من السرائر يعيب من فضحهم ويؤثمهم ، ولكنهم لم يحاولوا التنصل مما وصمهم به ، فدل ذلك على صدقه . وفرضت ظاهرية ابن حزم عليه أن يرفض عد الغيب وجها من وجوه الإعجاز . كما رفض كل وجه إلا الصرفة .

وفطن الطوسى إلى أن العاقل لا يدلى بالقول القاطع الحاسم فى مثل أمور الغيب ، خشية ألا تتحقق . وإنما يتفوه بعبارات مبهمة تحتمل تأويلات شتى . فلما جاء بها القرآن قاطعة دل على أنها من عند علام الغيوب . وقد تناول من بعده هذه الفكرة كثيرا ، وبنوا عليها كلاما طويلا .

كذلك كان أول من نبه إلى أن آية التحدى فى سورة البقره إحدى آيات الإنباء بالغيب ، ومن ثم إحدى أدلة الإعجاز . وقد تابعه فى ذلك معظم المفسرين والكاتبين فى الإعجاز والمتحدثين عن هذه الآية ولو حديثا عارضا .

وبنى الراغب الأصفهانى على فكرة القاضى عبد الجبار أن إعجاز الغيب يمكن أن يدركه أى إنسان ... أن هذا الإعجاز لذاته لا بكونه فى القرآن ، وأنه لا يحتاج إلى أن يصاغ فى نظم رفيع ، لينال شرف الحكم عليه بالإعجاز . وتابعه الألوسى فى ذلك . وأضاف الزمخشري فكرة أنه لو قام أحد من الكفار ومعارضى الإسلام بمعارضة القرآن، لتناقل الناس أخبارها ، لأن كتمانها محال ، وبخاصة أن عدد خصوم الإسلام كان كثيرا . وقد ردد العلماء بعده هذا القول .

وأتى ابن عطية بفكرة أن المؤمن هو الذى يصدق الإعجاز بالغيب ، وتابعه فيها بعضهم ، على غرابتها وتناقضها مع ما يوحى به قول عبد الجبار .
وعاد القاضى عياض إلى الحديث عن القصص التى طلبها اليهود . فذكر أنها لم يعرفها إلا أفراد من أحبارهم . وعلى الرغم من ذلك ، لى الرسول طلبهم ، ولم يستطع أحد منهم أن يكذبه ، وإن حاول ذلك بعضهم . وتابعه السيوطى والآلوسى .
وانفرد العلوى اليمنى ، الذى رفض إعجاز الغيب ، بأنه لو صح إعجاز الغيب لكان عذرا قويا لمن عجز عن معارضة القرآن من العرب .

وجاهد الإيجى - والشريف الجرجانى والآلوسى تبعاه له - فى إيراد الاعتراضات أو ما سماه الشُّبه على إعجاز الغيب ، وإبطالها .

وانفرد محمد رشيد رضا بوضع آيات الإنباء بأحداث المستقبل فى قسم غيب الحاضر . وأعتقد أنه ذهب فى ذلك إلى أنها تنبؤات حاضرة بأحداث مستقبلية . وكان أكثر وضوحا وتوفيقا فى وضعه أحداث ما سمته التوراة (التكوين) أى خلق العالم فى غيب الماضى ، وأحداث يوم القيامة فى غيب المستقبل . وعرف الغيب بأنه ما غاب علمه عن الناس . ولكن تعريف د. موسى شاهين لاشين بأن الغيب مالا يعلمه محمد ﷺ من تلقاء نفسه ، ولا يعقل أنه علمه عن غيره من الخلق ، أكثر دقة ووضوحا .

ويحمد لمحمد الخضر حسين شجبه للتجاوزات فى هذا الباب ، وتحديدده بما يقصد إلى الهداية فقط .

وعقد الزرقانى فصلا طويلا خصصه للغيب ، عنى فيه بالإكثار من الأمثلة وتحليلها . وذهب فيه إلى أن الغيب يتضمن معجزات كثيرة ، وإلى أن الكشوف العلمية على صلة به . ولما كان قد ذهب - هو وغيره منذ أول عالم تكلم عن إعجاز المستقبل إلى أن سر إعجاز الغيب أنه وقع كما حدث القرآن ، فإنه تتبع ما يصدق كل نوع من أنواع الغيب . فأعلن أنه :

- إن أخير عن غيب الماضى صدقه ما شهد به التاريخ .

- وإن أخطر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء ، وما يجد في العالم من تجارب وعلوم .

- وإن أخطر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي ، وما تجيء به الأيام .
كذلك عقد د. حسن ضياء الدين عثر فصلا طويلا ، اعتمد فيه على القاضي عبد الجبار والألوسي والزرقاني ودرار . وأتى بفكرة أن إدراك إعجاز الغيب لا يحتاج إلى ذوق بلاغى .

ومائل خلف الله الزرقاني في الإطناب في الحديث عن الغيب والعناية بتحليل الأمثلة ، رجع فيه إلى عدد كبير ممن كتبوا في هذا الوجه من الإعجاز . وأكد أن الآية التي تخلو من الغيب لا تخلو من جملة الإعجاز . وأن كل آية فيها ما يناسبها من وجوه الإعجاز ، وأن الغيب منه ما وقع في عصر الرسول ، ومنه ما يقع بعده ، فإعجازه قائم إلى اليوم . ورد على من اتهمه بالسحر متسائلا لماذا إذن لا يأتون بسحر صادق مثله ؟ وخلص إلى أن القرآن لا يذكر إلا ما يتصل بالرسالة والدعوة وتكميل الإنسان .

واختلف موقف الرازي في كتبه المختلفة . فأعلن في تفسيره أن آية التحدى تدل على الإنباء بالغيب ، وتكشف بذلك عن إعجازه . ورفض في « المحصل » هذا الوجه من الإعجاز .

المراجع والمصادر

- الألوسى ، شهاب الدين محمود بن عبد الله : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - بيروت - دار الفكر - ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .
- إسماعيل ، د. شعبان محمد : المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية - مصر - دار الأنصار - ط ١ - ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .
- الأشعري ، على بن إسماعيل : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - استانبول - مطبعة الدولة - ١٩٢٩ .
- ابن أبى الإصبع ، عبد العظيم بن عبد الواحد : بديع القرآن - القاهرة - دار نهضة مصر - ط ٢ .
- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحلیم : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - مصر - مطبعة المدنى .
- ابن جزى الغرناطى ، محمد بن أحمد : التسهيل لعلوم التنزيل - مصر - مطبعة حسان .
- ابن الجوزى ، عبد الرحمن بن على : زاد المسير فى علم التفسير - المكتب الإسلامى للطباعة والنشر .
- ابن حزم ، على بن أحمد : الفصل فى الملل والأهواء والنحل - مصر - ١٣١٧ - ١٣٢٠ .
- ابن عطية ، عبد الحق : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - طبع على نفقة سمو أمير دولة قطر .
- ابن كثير ، إسماعيل : تفسير القرآن العظيم - لبنان - بيروت - دار المعرفة - ١٣٨٨ / ١٩٦٩ .
- ابن النقيب ، محمد بن سليمان : مقدمة تفسيره - مكتبة الخانجى - ط ١ - ١٤١٥ / ١٩٩٥ .
- أبو حيان ، محمد بن يوسف : البحر المحیط - مصر - مطبعة السعادة - ط ١ - ١٣٢٨ .
- أبو الخشب ، إبراهيم على : القرآن الكريم : دراسة - مصر - دار الثقافة العربية للطباعة .
- أبو ريذة ، د. محمد عبد الهادى : إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية . القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .
- أبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى القرآن - مصر - دار غريب للطباعة - ١٩٧٧ .
- أبو زيد ، أحمد : المنحى الاعتزالى فى البيان وإعجاز القرآن - المغرب - الرباط - مطبعة

- المعارف الجديدة - ط ١ - ١٩٨٦ .
- أبو زيد ، د. نصر حامد : مفهوم النص - مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٠ .
- أبو السعود ، محمد بن محمد العمادى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - لبنان - بيروت - دار إحياء التراث العربى .
- أبو على ، محمد بركات حمدى : فى إعجاز القرآن الكريم - المكتبة الدولية - مؤسسة الخافقين - ط ١ - ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .
- الأسداباوى ، عبد الجبار بن أحمد :
- : تنزيه القرآن عن المطاعن - بيروت - دار النهضة الحديثة .
- : المغنى فى أبواب التوحيد والعدل - مصر - مطبعة دار الكتب - ط ١ - ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .
- الأميرى ، محمد وفا : ألوان من الإعجاز القرآنى - حلب العبارة - مطبعة الشرق - ط ١ - رمضان ١٤٠١ .
- الإيجى ، عبد الرحمن بن أحمد : المواقف فى علم الكلام - بيروت - عالم الكتب .
- الباقلانى ، محمد بن الطيب : إعجاز القرآن - مصر - دار المعارف - ط ٤ - ١٩٧٧ .
- البدرى ، د. على : حقائق وأباطيل حول إعجاز القرآن - مصر - دار الطباعة المحمدية - ط ١ - ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .
- بدوى ، د. أحمد أحمد : من بلاغة القرآن - مصر - مكتبة نهضة مصر - ط ٣ .
- البغدادى ، عبد القاهر بن طاهر : الفرق بين الفرق - لبنان - بيروت - دار المعرفة .
- البلخى : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة - تونس - الدار التونسية للنشر - ١٣٩٣ / ١٩٧٤ .
- البنورى ، محمد يوسف : يتيمة البيان فى شىء من علوم القرآن - باكستان - كراتشى - ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .
- البوطى ، د. محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن - مكتبة الفارابى - ط ٣ - شعبان ١٣٩٢ / أيلول ١٩٧٢ .
- البيضاوى ، عبد الله بن عمر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل - مصر - مصطفى البابى الحلبى وأولاده - ط ٢ - ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .
- حسين ، عبد القادر : القرآن : إعجازه وبلاغته - مصر - مطبعة الأمانة - ١٩٧٥ .
- حسين ، محمد الخضر : بلاغة القرآن - طبع ونشر على الرضا التونسى - ١٣٩١ / ١٩٧١ .
- الحمصى ، نعيم : فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد

- وتعليق - سورية - مؤسسة الرسالة - ط ٢ - ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .
- حميدة ، عبد الحسيب طه : مع القرآن في آدابه ومعاملاته - مصر - دار المعارف - ط ٦ - ١٣٨٩ / ١٩٧٠ .
- حويش ، عمر الملا : تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية - بغداد - مطبعة الأمة - ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .
- الخطيب عبد الكريم : الإعجاز في دراسات السابقين - بيروت - دار المعرفة - ط ٢ - ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .
- خلف الله ، أحمد عز الدين عبد الله : القرآن يتحدى - مصر - مطبعة السعادة - ط ١ - ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .
- الخياط ، عبد الرحيم بن محمد : الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والظعن عليهم - بيروت - المطبعة الكاثوليكية - ١٩٥٧ .
- الدباغ ، مصطفى : وجوه من الإعجاز القرآني - الأردن - الزرقا - مكتبة المنار - ط ١ - ١٩٧٢ .
- دراز ، د. محمد عبد الله : مدخل إلى القرآن الكريم - الكويت - دار القلم - ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .
- : النبأ العظيم - مصر - مطبعة السعادة - ١٣٨٩ / ١٩٦٩ .
- دروزة ، محمد عزة : القرآن والمبشرون - المكتب الإسلامي - ط ١ - ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .
- الرازي ، محمد بن عمر فخر الدين : التفسير الكبير - طهران - دار الكتب العلمية - ط ٢ .
- : محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين - مصر - مكتبة الكليات الأزهرية .
- : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - مصر - مطبعة الآداب والمؤيد - ١٣١٧ .
- الراغب الأصبهاني ، الحسين بن محمد : مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة - الكويت - دار الدعوة - ط ١ - ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .
- الرافعي ، مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - القاهرة - مطبعة الاستقامة - ط ٨ - ١٣٨٤ / ١٩٦٥ .
- رضا ، محمد رشيد : تفسير المنار - بيروت - دار المعرفة .
- الرماني والخطابي والجرجاني : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - مصر - دار المعارف .
- زررور ، د. عدنان محمد : القرآن ونصوصه - سورية - مطبعة خالد بن الوليد ١٣٩٩ - ١٤٠٠ / ١٩٧٩ - ١٩٨٠ .

- الزركشى ، محمد بن عبد الله : البرهان فى علوم القرآن - ط ٣ - ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .
- الزمخشري ، محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل - دار الفكر - ط ١ - ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .
- الزملىكانى ، عبد الواحد بن عبد الكريم : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - بغداد - مطبعة العانى - ط ١ - ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .
- السلامى ، عمر : الإعجاز الفنى فى القرآن - تونس - طبع مصنع الكتاب - ماى ١٩٨٠ .
- سلطان ، منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة - مصر - الإسكندرية ، مطبعة الكاتب المصرى - ١٩٧٦ .
- السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : الإتيقان فى علوم القرآن - مصر - المطبعة الموسوية - ١٢٨٧ .
- معتزك الأقران فى إعجاز القرآن - مصر - دار الثقافة العربية - ١٩٦٩ .
- الشافعى الملقى ، محمد بن أحمد : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع - مكتبة المثنى ببغداد والمعارف ببيروت - ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .
- شاهين ، د. موسى لاشين : اللآلىء الحسان فى علوم القرآن - مصر - مطبعة الفجر الجديد - ١٩٨٢ .
- شحاتة ، د. عبد الله : علوم القرآن والتفسير - مصر - دار العلوم للطباعة - ١٩٨٠ .
- شرف الدين ، د. صالحه عبد الحكيم : القرآن الحكيم : إعجازه وبلاغته وعلومه - الكويت - مطابع كويت تايمز - رجب ١٤٠٤ / أبريل ١٩٨٤ .
- الشريف الجرجانى ، على بن محمد : شرح المواقف - مصر - مطبعة السعادة - ١٣٢٥ / ١٩٠٧ .
- الشعراوى ، محمد متولى : معجزة القرآن - مصر - كتاب اليوم - دار أخبار اليوم - ط ١ - ١٩٧٧ .
- الشهرستانى ، محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل - بيروت - دار المعرفة - ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .
- الشوكانى ، محمد بن على : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير - دار الفكر - ط ٣ - ١٩٧٣ / ١٣٩٣ .
- الصابونى ، محمد على : التبيان فى علوم القرآن - مكتبة الغزالى بدمشق ومناهل العرفان ببيروت - ط ٢ - ١٤٠١ / ١٩٨١ .
- الصباغ ، محمد : لمحات فى علوم القرآن واتجاهات التفسير - بيروت - المكتب الإسلامى

- ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

- الصواف ، محمد محمود : القرآن - مؤسسة الرسالة - ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .
- الطيرسى ، الفضل بن الحسن : مجمع البيان فى تفسير القرآن - بيروت - دار إحياء التراث العربى .
- الطوسى ، محمد بن الحسن : تفسير التبيان - العراق - النجف الأشرف - مطبعة النعمان - ١٣٨٥ / ١٩٦٥ .
- العانى ، عبد القهار داود : دراسات فى علوم القرآن - بغداد - مطبعة المعارف - ط ١ - ١٩٧٢ .
- عبد الرحمن ، د. عائشة : الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق - مصر - دار المعارف - ١٣٩١ - ١٩٧١ .
- عبده ، محمد : رسالة التوحيد - بيروت - ط ٢ - ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .
- عتر ، د. حسن ضياء الدين : بينات المعجزة الخالدة - سورية - حلب - دار النصر - ط ١ - ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .
- عرجون ، محمد الصادق : القرآن العظيم : هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين - مصر - دار الاتحاد العربى - ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .
- عرفة . محمد أحمد : نقض مطاعن فى القرآن الكريم - مصر - مطبعة المنار - ط ١ - ١٣٥١ .
- العلوى اليمنى ، يحيى بن حمزة : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - مصر - مطبعة المقتطف - ١٣٢٢ / ١٩١٤ .
- فقيهى ، د - محمد حنيف : نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر عن كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز - صيدا - بيروت - المكتبة العصرية - ط ٢ - ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .
- القاسمى ، محمد جمال الدين : محاسن التأويل - مصر - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبي وشركاه .
- القرطبى ، محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن - مصر - مطبعة دار الكتب .
- قصاب ، د - وليد : التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى - قطر - الدوحة - دار الثقافة - ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .
- القطان ، مناع : مباحث فى علوم القرآن - بيروت - مؤسسة الرسالة - ط ٤ - ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

- قمحاوى ، محمد الصادق : شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردّها - مصر - دار الأنوار - ط ١ - ١٩٧٨ .
- الكرمانى ، محمود بن حمزة : أسرار التكرار فى القرآن - مصر - دار الاعتصام - ط ٣ - ١٩٧٨ / ١٣٩٨ .
- كفافى ، د . محمد عبد السلام وعبد الله الشريف : فى علوم القرآن : دراسات ومحاضرات - بيروت - دار النهضة العربية - ١٩٨١ .
- الكومى ، د . سامى عبد العزيز : الإعجاز القرآنى فى مجال الإعلام - مصر - مطبعة السعادة - ط ١ - ١٤١١ / ١٩٩٠ .
- لاشين ، د . عبد الفتاح : بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار وأثره فى الدراسات البلاغية - القاهرة - مطبعة دار القرآن - ١٩٧٨ .
- الماوردى ، على بن محمد : أعلام النبوة - بيروت - دار الكتب العلمية - ط ١ - ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .
- المراغى ، أحمد مصطفى : تفسيره - مصر - مصطفى البابى الحلبي وأولاده - ط ٣ - ١٣٩٣ / ١٩٧٤ .
- النسفى ، عبد الله بن أحمد : تفسيره - مصر - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبي وشركاه .
- النيسابورى القمى ، الحسين بن محمد : غرائب القرآن و رغائب الفرقان - مصر - مصطفى البابى الحلبي وأولاده .
- اليحصبى ، عياض بن موسى : الشفابتعريف حقوق المصطفى - سورية - دمشق - دار الوفا .

محتويات الجزء الأول

٣ مقدمة
٥ الفصل الأول : القائلون بالصرفة
٤١ الفصل الثاني : الرد على القول بالصرفة
٥٦ الفصل الثالث : تعليل القول بالصرفة
٦٠ أثر الصرفة
٦١ الصرفة والمذاهب
٦٢ الشك في الصرفة
٦٣ خاتمة

محتويات الجزء الثاني

٧٣ مقدمة
٧٤ الفصل الأول : المؤيدون لكون الإنباء بالغيب وجه الإعجاز ...
٩٨ الفصل الثاني : الرافضون لكونه وجهاً للإعجاز
١٠٠ خاتمة
١٠٥ المراجع والمصادر

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

رقم الإيداع : ١٣١٤٢ / ٢٠٠٠

التقييم الدولي : 3 - 1362 - 11 - 977

دار نشر طيبة
بيروت - المملكة العربية السعودية